التراث الروحي

القديس أوغسطينس

محاورة الذات

نقله إلى العربية
الخوراسقف يوحنا الحلو

دار المشرق - بيروت

مُحاورَة الذّات

التراث الروحي

القِدّيس أُوغُسطِينُس

مُحاورة الذّات

نقله إلى العربيّة
الخوراسقف يوحنّا الحلو

دار المشرق - بيروت

دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5179-0

التوزيع : **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: (٠١) ٤٨٥٧٩٣
فاكس: (٠١) ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
Email: libor@cyberia.net.lb

مقدّمة الناقل

كتاب بين الكثير من الكتب التي تركها للعالم قدّيسنا العظيم أوغسطينس، الذي عاش بين جيلَيْن، بين النصف الأخير من الجيل الخامس الميلاديّ والربع الأوّل من الجيل السادس، فمهر بمواعظه وكتاباته معاصريه وعارفيه، ولا تزال مؤلّفاته التي كان لي شرف نقل اليسير منها إلى اللغة العربيّة، تشغل مفكّري العالم وتستقطب اهتمام فلاسفته ولاهوتيّيه، لما فيها من أفكار ما شاخت مع الزمن، بل ظلّت وستظلّ جديدة ينهل منها كلّ طالب علم مستزيدًا من غناها الروحيّ والفلسفيّ.

وهذا الكتاب استوقفني أسلوبه الخاصّ في البحث عن الحقيقة، وقد قلّ مَن جاراه فيه كاتب أو فيلسوف عرفتُه حتّى الآن، بحيث جُعل النقاش في موضوع الحقيقة بين الكاتب والعقل، وسمّاه **محاورة الذات**، وفي اللغة اللاتينيّة التي نقلتهُ عنها إلى العربيّة: «*Soliloquia*». وفيه جولات يتخطّى من خلالها الكاتبُ الأسلوبَ العاديّ المألوف، فيتّخذ صورًا وتشابيه رغبة في التبسيط وصولًا إلى ما يرتاح إليه ويطمئنّ المؤلّف والقارئ معًا. فعسى أن يجد فيه مَن أَلِفوا قراءة أوغسطينس، والتأمّل في أفكاره، ما يساعدهم على الوصول إلى ما يبتغونه من طمأنينة للنفس، وغنى للعقل، يقودان إلى

سعادة لا بدّ منها ولا يُنال منها شيء، في عالم يتقاتل فيه الناس على مالٍ ينفد، وزعامةٍ واهية، وتسلُّط لا يرتاح إليه الممسك بزمامه، والعاملُ على بسطه على دول وشعوب تئنّ وترزح تحت نيره الثقيل، وتتوق إلى التحرّر منه بوسائل شتّى.

ويبقى القلمُ خيرَ سلاح والكتاب خير جليس ورحمة الله خيرَ مُعين. . .

الخورأسقف يوحنّا الحلو

اليوم الأوّل

I – أوغسطينس يبحث عن ذاته في حين أنّ القدرة الطبيعيّة تنقصه

١ أوغسطينس: منذ زمن بعيد أفكّر في ألف شيء وشيء؛ أجل، منذ زمن أبحث عن ذاتي بحرارة؛ أبحث عن خيري كما أبحث عن الشرّ لأتجنّبه فإذا بي أسمع صوتًا، لست أدري إن كان منّي هذا الصوت أم هو غريب عنّي؛ وسعيت جادًّا إلى معرفته فإذا به يقول لي:

العقل: إفترض أنّك وجدت شيئًا ما، فلمَن تعهد به لِتنتقلَ إلى سواه؟

أوغسطينس: طبعًا، أعهد به إلى ذاكرتي.

العقل: وهل هي إلى هذا الحدّ قادرة على أن تحفظ كلّ ما تعهد به إليها من أفكار؟

أوغسطينس: صعب هو الأمر إن لم يكن مستحيلًا.

العقل: إذ ذاك يجب أن تكتب كلّ شيء؛ ولكن ماذا تفعل إن لم تسمح لك صحّتك بأن تتحمَّل مشقّة الكتابة؟ وإملاؤها على آخر مستحيل لأنّها تستلزم أن تنفرد بذاتك.

أوغسطينس: حقًّا تقول؛ ولهذا فلست أدري ما العمل.

العقل يدعوه إلى الصلاة وطلب المعونة

العقل: سَلِ الله عونًا يوصلك إلى ما تبتغيه؛ ولتكن صلاتك إليه خطِّيَّة لتقوى فيك الجرأة فتوجز ما تتوصّل إليه من نتائج. وعليك ألّا تهتمَّ بما يرضي جمهور قارئيك لأنّ القليلين بينهم يهتمّون بتلك المناقشات.

٢ أوغسطينس: ها أنا عامل بما تقول: **صلاة**:

أللّهمّ يا خالق الأكوان، اسمح لي، في بداية الأمر، أن أدعوك كما يليق فأصبح أهلًا لأن تستجيبني فأدين لك بحرّيّتي؛ أللّهمّ يا مَن يتوق إليك كلّ مَن لا كيان له إلّا بك؛ أللّهمَّ يا مَن لا تسمح بأن تزول الأشياء التي تُفني ذاتها بذاتها. أللّهمَّ يا مَن خَلقت من لا شيء هذا الكون الذي تشعر بجماله الفائق جميع العيون. أللّهمَّ يا مَن لم تخلق الشرّ وتسمح بوجوده استباقًا لشرّ أكبر؛ اللّهمَّ يا مَن تكشف بأن ليس للشرّ جوهر أمام العدد القليل من العقول القادرة على الوصول إلى ما هو «كائن» حقًّا؛ اللّهمَّ يا مَن بفضلٍ منك يبقى هذا العالم كاملًا مع ما فيه من «عناصر مزعجة». أللّهمَّ يا مَن لا تسمح بأيّ نشاز في الأسفل من درجات هذا الكون حيث الأسوأ فيه يتناسق مع الأفضل. أللّهمَّ يا مَن يحبّك كلّ مَن يستطيع أن يحبّ، عن معرفة أو عن غير معرفة؛ أللّهمَّ يا مَن فيك الكلّ دون أن ينال منك ما في الخليقة الفاسدة من سوء أو خبث أو ضلال. أللّهمَّ يا مَن لم تهب معرفة الحقيقة إلّا للأنقياء[١]. أللّهمّ يا أبا الحقيقة والحكمة والحياة الحقيقيّة

(١) تراجع عن هذا القول لاحقًا سنة ٤٢٧ وكان عمره ٧٢ سنة لأنّ الكثيرين من غير الأنقياء القلوب يعرفون حقائق كثيرة.

والفضلى، ويا أبا السعادة والخير والجمال والنور المدرَك، أيّها الآب، يا مَن بك وحدك نستيقظ ونستنير، يا أبًا يحذّرنا ويضمن عودتنا إليه.

٣ إيّاك أدعو أيّها الإله الحقّ، يا مَن بك وفيك حقٌّ هو كلّ حقّ؛ أيّها الإله الحكمة، يا مَن بك وفيك حكيمٌ هو كلّ حكيم؛ أللّهمَّ، أيّها الحياة المثلى، يا مَن بك وفيك حيٌّ هو كلّ مَن يحيا حقًّا؛ أللّهمَّ، أيّها السعادة، يا مَن بك وفيك ومنك، سعيدٌ هو كلّ مَن كان سعيدًا حقًّا؛ أللّهمَّ أيّها الخير والجمال، يا مَن بك ومنك وفيك جميل وخيّر كلّ جميل وخير وحقّ. أللّهمَّ، أيّها النور المدرَك يا مَن بك وفيك ومنك منير، هو كلّ نيّر وقابل للإدراك. أللّهمَّ، أيّها المالك على العالم الذي لا تدركه الحواسّ، يا مَن ملكوته يسنّ لممالك هذا الكون شرائعها؛ أللّهمَّ يا مَن، الابتعاد عنك سقوط، والعودة إليك نهوض من جديد، والثبات فيك صمود؛ يا مَن الخروج عنك موت، والعودة إليك حياة جديدة، والسكنى فيه حياة؛ أللّهمَّ، يا مَن لا يفقدك إلّا من ضلّ، ولا يبحث عنك إلّا مَن تدعوه، ولا يجدك إلّا مَن سبق فتنقّى. أللّهمَّ، يا مَن التخلّي عنك موت، والسعي إليك محبّة، والنظر إليك امتلاكٌ تامّ. أللّهمَّ، يا مَن يدفعنا إليك الإيمان ويقوّينا فيك الرجاء، وتوحّدنا فيك المحبّة؛ أللّهمَّ يا مَن بك ننتصر على العدوّ، إليك أوجّه صلاتي!

أللّهمَّ، يا مَن أنت خلاصنا من الهلاك الأبديّ؛ يا مَن تدعونا إلى أن نكون يقظين؛ ويا من بفضلٍ منك، نميّز الخير من الشرّ فنهرب من الشرّ ونسعى إلى الخير. يا مَن بفضلك نجابه الضيق، ونحسن فنّ الطاعة والقيادة. أللّهمَّ، يا مَن بفضلك

نعرف أنّ ما نظنّه لنا ليس لنا وما نظنّه غريبًا عنّا قد يكون لنا؛ أللّهمَّ، يا مَن بك نتحرّر من مغريات الأشرار ومكايدهم؛ ويا مَن بفضلٍ منك لا تحطّ الأشياء الحقيرة من قيمتنا؛ أللّهمَّ، يا مَن بفضلٍ منك، ما نراه الأفضل فينا ليس محكومًا بالأسوأ؛ أللّهمَّ، يا مَن قد ابتُلِعَ، بفضل منك، الموتُ بالغلبة (١ قور ١٥/ ٥٤)؛ أللّهمَّ، يا مَن توجّهنا إليك وتعرّينا ممّا ليس بشيء لتلبسنا ممّا هو؛ أللّهمَّ، يا مَن تجعلنا أهلًا لأن نُستجاب؛ ويا مَن تقوّينا وتدفعنا إلى كلّ ما هو حقيقيّ؛ أللّهمَّ، يا مَن تقول لنا كلّ خير، ولا تجعل منّا أناسًا حمقى، ولا تسمح لأيٍّ كان بأن يجعلنا عديمي الشعور؛ أللّهمَّ، يا مَن تدعونا إلى سلوك الصراط المستقيم، وتقودنا إلى الباب وتفتحه لمَن يقرعونه (متّى ٧/ ٨)؛ أللّهمَّ، يا مَن تهبنا خبز الحياة وبفضلٍ منك نعطش إلى الماء الذي يرتوي إلى الأبد كلّ مَن يشرب منه (يوحنّا ٦/ ٣٥)؛ أللّهمَّ، يا مَن تدين هذا الجيل على الخطيئة وعلى الحكم والدينونة (يوحنّا ١٦/ ٨) ويا مَن بفضلٍ منك لا ننقاد وراء أقوال الكفرة؛ أللّهمَّ يا مَن تعلّمنا أن نشجب ضلال الكفرة الذين يقولون أن ليس للنفوس أيّ استحقاق لديك؛ أللّهمَّ يا مَن بفضلٍ منك لسنا للمرضى والضعفاء أسرى (غلاطية ٤/ ٩)؛ أللّهمَّ يا مَن تطهّرنا وتعدّنا لنيل المكافآت الإلهيّة - ترأّف عليَّ يا إلهي.

٤ أللّهمَّ، يا مَن أنت وحدك، كل ما سبق وقلت، أغثني أيّها الجوهر الحقّ والأزليّ، يا مَن تخلو من كلّ اختلاف وتغيير ونقص في ذاته وموت وغموض. أنت هو التآلف الأسمى والثبات والكمال الأسمى والحياة السميا، أنت يا مَن لا تعرف النقصان ولا المزيد؛ واحدٌ أحدٌ عندك الوالد والمولود. إليك

يخضع كلّ مَن يخضع، وإيّاك تطيع كلّ نفس صالحة. شرائعك تضبط للأقطاب حركتها، وللكواكب مجراها وللنهار حرارة الشمس، ولليل نور القمر الخافت؛ وتؤمّن للكون، بواسطة الأيّام، تعاقب النور والظلام واكتمال القمر ونقصانه؛ وتؤمّن للسنين توالي الربيع والصيف والخريف والشتاء، وللنجوم اكتمال دورة الشمس، كما تحفظ الدورات الكبرى من خلال عودة الكواكب إلى نقطة انطلاقها. تضبط المادّة المحسوسة بموجب ذلك النظام الرائع وكرور الأزمنة بنظام؛ أللّهمَّ، يا مَن لا تسمح شرائعك الثابتة إلى الأبد بأن تتأثّر بحركة العناصر المتغيّرة، بل تفرض على الأجيال نَهجًا منظّمًا وكأنّه رادع يذكّرها ويدعوها إلى التشبّه بما أنت عليه من ثبات. إنّ شرائعك تضمن للنفس حرّيّتها وتعيّن حتمًا للصالحين مكافأةً وللأشرار عقابًا؛ أللّهمَّ، يا مَن، كلّ خير يأتينا، هو منك؛ وعنّا تبعد كلّ شرّ؛ أللّهمَّ، أنت فوق الكلّ وفيك الكلّ ومن دونك لا شيء؛ أللّهمَّ، يا مَن صنعت الإنسان على صورتك ومثالك، وهذا ما يعرفه كلّ مَن يعرف نفسه. أصغِ إليَّ، أصغِ إليَّ، أصغِ إليَّ يا إلهي وسيّدي ومليكي وأبي وعلّةَ وجودي ورجائي وسعادتي وعقلي وموطني وخلاصي ونور حياتي! أصغِ إليَّ، أصغِ إليَّ، أصغِ إليَّ بالطريقة التي لك والتي يعرفها القليلون!!

٥ من الآن فصاعدًا، أنت وحدك أُحبّ، إليك وحدك أسعى، وعنك وحدك أبحث، إنّي لأشعر باستعداد لخدمتك وحدك، لأنّك وحدك تحكم بعدل؛ أتوق إلى أن أكون تحت إمرتك. بحقّك، مرْ، مرْ بما تريد؛ واحدةً سألتك فقط وهي أن تشفيني وتفتح أذنيَّ لسماع كلمتك؛ إشفني وافتح عينيّ فأرى كلّ ما

تريد. أبعد عنّي كلّ حماقة لكي أعرفك. قل لي كيف أوجّه نشاطي لأراك. أرجو العمل بكلّ ما تريد؛ استقبل، أرجوك، ابنك الضالّ، يا ربّ، يا أحنَّ أبٍ.

حسبي ما لقيت من عذابات أنزلها بي أعداؤك الذين تطأهم قدماك. حسبي ما لفّقوا حولي من أكاذيب جعلتني هبةً بين أيديهم. إقبلني أنا عبدك، الهارب منهم إليك؛ لقد أحسنوا استقبالي أنا الغريب، عندما كنت هاربًا بعيدًا عنك! أشعر بضرورة العودة إليك. إفتح لي بابًا لك أقرعه! علّمني كيف الوصول إليك؛ لم يعد لي سوى حسن الإرادة؛ ولم أعد أعرف سوى احتقار كلّ ما يتغيّر ويزول والسعي الضروريّ إلى ما لا يتغيّر ويبقى إلى الأبد. ذاك ما أعمله، أيّها الآب، لأنّي لا أعرف سواه وأجهل كيف الوصول إليك؛ إن كان بالإيمان يجدك اللاجئون إليك فأعطنيه؛ وإن كان بالقوّة فهبني إيّاها وإن كان بالعلم فزوّدني إيّاه. قوِّ فيَّ الإيمان والرجاء والمحبّة. ويا لصلاحك الفريد العجيب!!

٦ إليك أريد أن أذهب: أسألك أن تمدّني بالوسائل التي توصلني إليك؛ إن تخلّيتَ عنّا نموت؛ بيد أنّك لا تتخلّى عنّا لأنّك الخير الأسمى الذي يجده كلّ مَن يبحث عنه باستقامة. يسعى إليه الإنسان باستقامة لأنّك تريد أن يبحث عنه هكذا. علّمني أيّها الآب أن أبحث عنك، ونجّني من الضلال في السعي إليك كيلا أجد في سعيي سواك. إن لم أطلب أحدًا غيرك فهل يمكنني أن ألقاك يا أبي. أمّا إن كانت فيَّ رغبة إضافيّة فأرجوك أن تنقّيني منها، واجعلني أراك حتّى لا يقف بوجهي ما يصدّني عن الوصول إليك. أمّا خلاص هذا الجسد الذي يزول، وبما

أنّي لا أعرف أيّ شيء يفيدني منه ويفيد أولئك الذين أحبُّهم، فإنّي أعهد به إليك، أيّها الآب الكلّيّ الحكمة والصلاح، أسألك له ما اقترحت عليَّ بشأنه في الوقت المناسب. شيئًا واحدًا أطلبه إليك، أيّها الرؤوف السامي، وهو أن توجّهني بكلّيّتي إليك فلا يصدّني عنك شيء؛ سلّحني بالقناعة والجرأة والعدل والفطنة فأحبّ الحكمة في سيري بهذا الجسد؛ وأهّلني لأكون معك في بيتك، وأقيم حقًّا في ملكوتك السعيد. آمين! حقًّا آمين!

II - في معرفة النفس

٧ أوغسطينس: ها قد أنهيت صلاتي.

العقل: والآن ماذا تريد أن تعرف؟

أوغسطينس: كلّ ما سألته في صلاتي.

العقل: أَوجِزْه ببعض الكلمات.

أوغسطينس: أتوق إلى معرفة الله والنفس.

العقل: لا شيء أكثر؟

أوغسطينس: لا شيء على الإطلاق!

العقل: إبدأ إذًا في البحث. ولكن فسّرْ لي، أوّلًا، كيف يمكن لبرهانٍ عن الله أن يجعلك تقول: «لقد اكتفيت»؟

أوغسطينس: لست أدرك المدى الذي يبلغه ذلك البرهان لكي أقول «اكتفيت» لأنّني، على ما أعتقد، لا أعرف شيئًا كما أتوق إلى معرفة الله.

العقل: إذ ذاك، ما هي القاعدة التي يجب أن نسلكها؟ ألا تظنّ أنّه يجب أوّلًا أن نعرف الحدّ الذي يجب أن تصل إليه معرفتنا حتّى إذا ما بلغناه اكتفيتَ به؟

أوغسطينس: أظنّ؛ ولكن الوسيلة الواجب استعمالها؛ هلّا عرفت في حياتي كائنًا ما شبيهًا بالله؟ وكيف لي أن أقول «أريد أن أفهم الله كما أفهم هذا الكائن؟»

العقل: أنت ما زلت تجهل الله: فكيف لك أن تعرف أنّك لا تعرف شيئًا شبيهًا بالله؟

أوغسطينس: لو كنت أعرف كائنًا ما شبيهًا بالله لأحببته بكلّ تأكيد؛ على أنّي في الواقع لست أحبّ سوى الله والنفس، ولست أعرف واحدًا منهما.

العقل: وأصدقاؤك؟ ألست تحبّهم؟

أوغسطينس: ما دمت أحبّ النفس، فكيف لا أحبّهم؟

العقل: وعلى هذا النحو ألا تحبّ البقّ والبراغيث؟

أوغسطينس: قلت إنّي أحبّ النفس وما قلت إنّي أحبّ الحيوانات.

العقل: إمّا ألّا يكون البشر أصدقاء لك وإمّا ألّا تحبّهم؛ لأنّ كلّ إنسان حيوان وأنت قلت إنّك لا تحبّ الحيوانات.

أوغسطينس: بشرٌ هُمْ أصدقائي وإنّي لأحبّهم، لا لكونهم حيوانات بل كبشر أحبّهم. لهم نفوس عاقلة. وأحبّها لدى اللصوص أيضًا لأنّي قادر على محبّة العقل في كائن ما، محتفظًا بحقّي في أن أبغضه إن أساء التصرّف بما أحبّ فيه من خير. كما وأنّي أزداد حبًّا لأصدقائي إذا أحسنوا التصرّف بنفوسهم العاقلة أو أقلّه إذا رغبوا في استخدامها بطريقة جديدة.

III – إشتياقه إلى معرفة الله

٨ العقل: إنّي لراضٍ بشرحك. أما إن قال لك أحدهم: «سوف أعرّفك بالله كما أنت تعرف أليبيوس.» ألست تشكره قائلًا: «حسبي ذلك التعريف؟»

أوغسطينس: أجل، قد أشكره قائلًا: «ذاك لا يكفيني».

العقل: ولماذا؟ أرجوك.

أوغسطينس: لأنّني، إن لم أعرف الله كما أعرف أليبيوس، فأليبيوس ذاته، لست أعرفه جيّدًا.

العقل: خَفْ من الوقوع في الكبرياء حين تتوق إلى أن تعرف الله معرفة تامّة في حين أنّك لا تعرف أليبيوس نفسه معرفة تامّة.

أوغسطينس: لست تفكّر تفكيرًا منطقيًّا. وهل تجد أتفه من المقارنة بين ما أتناوله من غداء والكواكب؟ ومع أنّي أجهل ما سوف أتناوله من طعام غدًا فإنّي أدّعي، بعيدًا عن كلّ كبرياء، معرفة الوجه الّذي يتّخذه القمر غدًا.

العقل: على هذا النحو، حسبك أن تعرف الله بالقدر الذي تعرف ما سيكون وجه القمر غدًا.

أوغسطينس: لست أكتفي بذلك لأنّها معرفة تصلني عن طريق الحواسّ؛ وإنّي لأجهل إن لم يغيّر الله أو أيّ سبب طبيعيّ غريب، بسرعة، مسيرة القمر ومجراه؛ وقد يُحمِّل حادثٌ شبيهٌ بما قلت توقّعاتي الكثيرَ من الأخطاء.

العقل: وهل تعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث؟

أوغسطينس: كلّا؛ لا أعتقد. إنّما لا أسعى إلى «الإيمان» بل إلى «المعرفة». قد يكون من حقّنا أن نقول عن كلّ ما نعرفه أنّنا نصدّقه؛ وليس العكس صحيحًا.

العقل: أأنت ترفض هنا كلّ ما تشهد له الحواسّ؟

أوغسطينس: قطعًا أرفضه.

العقل: ولكن الصديق الذي قلت لنا عنه إنّك لست تعرفه، أبالحواسّ أم بالعقل تريد أن تعرفه؟

أوغسطينس: إنّ ما عرّفتني به الحواسّ، إن كانت حقًّا تعرِّف بشيء، هو شيء لا يستحقّ الذكر؛ وحسبي ذلك. بيد أنّ الجزء منه الذي يجعله صديقًا لي، هي نفسه ذاتها؛ وبواسطة العقل أتوق إليها.

العقل: وهل يمكن التعرّف إليها بشكل آخر؟

أوغسطينس: كلّا.

العقل: وصديقك هذا، المرتبط فيك بشدّة، هلّا تجرؤ على أن تدّعي بأنّه يبقى مجهولًا بالنسبة إليك.

أوغسطينس: ولِمَ لا؟ إنّي لأعتبر شريعة الصداقة عادلةً جدًّا عندما تفرض علينا أن نحبّ صديقنا كنفسنا لا أكثر ولا أقلّ. وأنا أعرف ذاتي. وهل هي إهانة أوجّهها إليه إذا قلت عنه إنّني لا أعرفه وبخاصّة لأنّي متيقِّن من عدم معرفته لذاته؟

العقل: إن كان كلّ ما ترغب في معرفته مختصّ بالفئة التي، وحده العقل، يبلغها، ما كان عليك عندما قلت لك إنّك لعلى شيء من الكبرياء في محاولة معرفتك الله في حين أنّك لا تعرف أليبيوس فأعطيتني مثلًا غداءك أو القمر

وهي مسائل كما سبق وقلت مختصّة بالحواسّ.

IV - أيّ نوع من معرفة الله يريده أوغسطينس؟

٩ العقل: ما همّنا نحن من ذلك؟ أجبني الآن إن كان ما كتبه أفلاطون وأفلوطين عن الله صحيح؟ ألا يكفيك أن تعرف الله كما كانا يعرفانه؟

أوغسطينس: إن قبلنا بأنّ ما قالاه عن الله صحيح فهذا لا يعني بالضرورة أنّهما كانا يعرفان ما يقولانه. أناس عديدون يتكلّمون بكثرة عمّا يجهلون؛ وتلك هي حالتي في الصلاة. قلت إنّي أحبّ أن أعرف ما قد لا أحبّ أن أعود إليه إن كنت قد عرفته. أَوَلَمْ يكن لي الحقّ بالتكلّم عنه؟ لقد قلت أشياء كثيرة ممّا لم أفكّر به شخصيًّا وقد جمعته في كلّ مكان، وعهدت به إلى ذاكرتي مضيفًا إليه ما أمكنني من إيمان. أمّا المعرفة فهي شيء آخر.

العقل: قل لي، بحقّك، إن كنت تعلم، على الأقلّ، ما هو الخطّ في علم الهندسة؟

أوغسطينس: أعرفه جيّدًا.

العقل: وإن أكّدت ذلك على هذا النحو ألا تخشى أعضاء المجمع العلميّ؟[٢]

أوغسطينس: كلّا، على الإطلاق! إنّهم فلاسفة لا يرضون خطأً عن الحكيم؛ وأنا لست بحكيم. وحتّى الآن لا أخشى أبدًا أن أؤكّد أنّني أعرف الأشياء التي أعرفها حتّى إذا

(٢) يشير إلى الفلاسفة اليونان الارتيابيّين Les sceptiques الذين عرف مبادئهم.

بلغت الحكمة، كما أشتهي وأتمنّى، أعمل بموجب مشوراتها.

العقل: ليس لي أيّ اعتراض أسجّله. ولكن لنعدْ إلى سؤالنا: كما أنّك تعرف الخطّ فهل تعرف أيضًا هذه الكرة المسمّاة الدائرة؟

أوغسطينس: أعرفها.

العقل: هل تعرفهما بالتساوي؟ أم لك معرفة بهذه أو بذاك أكثر أو أقلّ؟

أوغسطينس: أعرفهما بالتساوي؛ ولا أخشى الخطأ مع أيٍّ منهما.

العقل: هل عرفتهما عن طريق الحواسّ أم بالعقل؟

أوغسطينس: لعبت الحواسّ بالنسبة إليَّ دور سفينة؛ كنت أستغني عنها بعد أن توصلني حيث أريد؛ وحين أنزل إلى البرّ، إذا صحّ القول، كنت أجيل المسائل في عقلي وكثيرًا ما كنت أتعثّر في سيري، كما وأنّي أعتقد بأنّ الإبحار على الأرض أسهل من فهم الهندسة بواسطة الحواسّ وإن كانت الحواسّ قادرة إلى حدٍّ ما على مساعدة المبتدئين.

العقل: أنت لا تخاف بالنتيجة من أن تسمّي علمًا المعرفة التي يمكنك أن تحصل عليها من خلال تلك الأشياء؟

أوغسطينس: كلّا. إن سمح لي بذلك الرواقيّون الذين لا يعترفون بالعلم إلّا للحكيم! لست أنكر أن لي نوعًا من المعرفة ينسبونه للحماقة. وفضلًا عن ذلك فلست أخاف منهم لأنّي أمتلك جيّدًا، وبطريقة علميّة، المسائل التي

سألتَني عنها الآن. تابع أسئلتك لأرى إلى أين تريد أن تصل من خلالها.

العقل: لا تسرع؛ لدينا الوقت؛ ولكن انتبه إلى ما أقول لئلّا تعطيني ما لن ترضى عنه؛ إنّي أجتهد في أن أجعلك تفرح بعلمٍ لا يؤدّي بك إلى ما لا ترضى عنه، وأنت تأمر بالإسراع كما لو أنّ الأمر غير ذي أهمّيّة.

أوغسطينس: سألت الله أن يكون كما أنت تقول، فاطلب منّي ما تريد ووبّخني بشدّة إن وقعت مجدَّدًا في خطإٍ مماثل.

١٠ العقل: أواضحٌ لديك أنّه لا يمكن إنسانًا أن يقسم خطًّا بالطول إلى خطّين؟

أوغسطينس: أجل إنّه واضح.

العقل: وما رأيك بشطره بالعكس.

أوغسطينس: من الواضح أنّ الخطّ يقسم هكذا إلى ما لا نهاية له.

العقل: أليس من الواضح لديك أيضًا أنّك لن تجد من بين كلّ الدائرات في كرة دائرتَيْن متساويتَيْن تبعدان قليلًا وكثيرًا عن النقطة الرئيسيّة من الكرة.

أوغسطينس: واضح تمامًا.

العقل: ما رأيك بالخطّ والدائرة هل يتساويان؟ أو بينهما بعض التباين؟

أوغسطينس: ومَن ذا الذي لا يرى أنّهما يختلفان كثيرًا؟

العقل: ولكن إن عرفتهما معرفة متساوية فوجدتهما على تباين كبير، فهذا يعني أنّه يمكن الحصول على معرفة متساوية لأشياء مختلفة.

أوغسطينس: ومَن ذا الذي أنكر ذلك؟

العقل: أنت شخصيًا، لبرهة مضت! ولأنّني حين سألتك كيف تريد أن تعرف الله لتتمكّن من أن تقول: «إكتفيت» أجبت بأنّك لا تستطيع أن تفسّر ذلك، إذ ما من شيء فهمته كما تريد أن تفهم الله لكونك لاتعرف شيئًا شبيهًا به. والآن قل لي! هل الخطّ والكرة متشابهان؟

أوغسطينس: مَن ذا الذي يجرؤ على أن يقول ذلك؟

العقل: لكنّني سألتك، لا ما تعرف شبيهًا به، بل ما تعرفه بالطريقة عينها التي تريد أن تعرف الله بها. هكذا أنت عرفت الخطّ كما عرفت الكرة وإن لم تكن الكرة كالخطّ. ولهذا عليك أن تجاوبني: هل يكفيك أن تعرف الله كما تعرف الكرة في علم الهندسة، بحيث لا يبقى لديك أيّ شكّ حول الله، كما هي حالك مع الكرة؟

V –

١١ أوغسطينس: عفوًا! مهما شددت عليّ ودفعتني إلى القول بما تريد فلست أجرؤ على أن أؤكّد بأنّني أرغب في أن أعرف الله كما أعرف هذه الصور. إنّي لا أرى تباينات في الصور فحسب، بل في المعرفة التي يمكننا أن نكوّنها عنها، بحيث لا تختلف الكرة والخطّ، حتّى يصعب على العلم عينه أن يبيّن ما بينهما من اختلاف؛ في حين لا نجد عالم هندسة واحد تباهى بالتعريف بالله. ومن ثمّ فإن تشابهت معرفة الله بمعرفة تلك

الأشكال، فقد يكون فرحي بمعرفتها مساويًا لما أشعر به لدى معرفتي بالله. على أنّي أحتقرها كثيرًا حين أقارنها بالله، ويبدو لي أحيانًا أنّني لو كنت أدركه وأراه، كما يمكن أن يكون مرئيًا، لتلاشى كلّ شيء في فكري. من الآن فصاعدًا أرى أن محبّتي لله تمنعها من زيارة عقلي.

العقل: أدرك بأنّك تشعر في معرفتك الله بفرح لا مثيل له، ولا يقارن بما لديك من معرفة بالخطّ والكرة. والفرق هو في الأشياء عينها وليس في العقل. وهل لك أن تتطلّع بعينين مختلفتين إلى السماء الصافية، من جهة، والأرض، من ناحية أخرى؟ ومع ذلك فإنّ منظر السماء أحبُّ إليك. وجوابًا على السؤال التالي: أأنت واثق من أنّك ترى الأرض كما ترى السماء؟ تقول إذا لم تخدعك عيناك فإنّك واثق من الرؤية عينها، ولو لم يستهوك منظر الأرض كما استهواك صفاء السماء وجمالها.

أوغسطينس: لقد أثّر بي كثيرًا هذا التشبيه ويدفعني إلى الاعتراف بأنّ الفرق كبير بين عظمة الله، القابلة للإدراك، والبراهين العلميّة التي لا تشكّ فيها، كما هو على صعيد آخر، ما بين السماء والأرض.

VI - إلى ما تحتاج النفس لكي ترى الله؟

١٢ العقل: لقد أحسنت حينما تأثّرت. يعدك العقل الذي يحاورك بأن يُظهر الله لإدراكك كما تظهر الشمس لناظريك لأنّ

للعقل أيضًا عينيه وهي الحواسّ النفسيّة. إنّ الحقائق العلميّة الأقوى تشبه الأشياء التي تنيرها الشمس فتجعلها مرئيّة كالأرض وما عليها، بيد أنّ الله ذاته هو الذي ينير! أمّا أنا العقل فإنّي بالنسبة إلى المعقول كالنظر إلى العيون. أن تكون للإنسان عينان فهذا لا يعني أنّه يرى. وعليه، فالنفس تحتاج إلى ثلاثة لكي يكون لها عينان تتمتّع بهما لتنظر وترى: عين سليمة وعقل صافٍ معصوم ومنقّى ومنزّه عن كلّ ميل إلى ما يزول. الإيمان وحده كافٍ بأن يؤمّن له ذاك التحرّر. وهذا ما لا تستطيع أن تتأمّل فيه وهي مريضة وموبوءة بالرذائل (الصحّة الأخلاقيّة مطلوبة قبل كلّ شيء) وإذا لم تقتنع بأنّها لن تستعيد نظرها إلّا إذا تنقّت فلن تعمل شيئًا. ولكن، إن قبلت بما يقال لها، وبأنّها سوف ترى ويئست من قدرتها على الشفاء ألا تصاب بالإحباط واحتقار ذاتها حين ترفض الانصياع لتوجيهات الطبيب؟

أوغسطينس: صحيح؛ فضلًا عن أنّ ما يوصي به الطبيب غالبًا ما يبدو مزعجًا للمريض.

العقل: يجب أن نضيف الرجاء إلى الإيمان.

أوغسطينس: أظنّ.

العقل: أجل، إذا كانت النفس قد قبلت بكلّ ذلك وأملت بالشفاء ولم تحبّ النور الذي وُعِدَت به ولا تمنّته، واعتبرت أنّ عليها أن تكتفي، إلى زمن، بما فيها من ظلمات قبلت بها وتعوّدتها، ألا ترى أنّها قادرة على رفض الطبيب؟

أوغسطينس: لا شكّ في ذلك.

العقل: إذًا، الحلّ الثالث يكمن في المحبّة كضرورة.

أوغسطينس: لا شيء أراه ضروريًّا مثلها.

العقل: بدون تلك الثلاث (الفضائل) لا شفاء للنفس؛ وبفضلها تستطيع أن ترى إلهها أي أن تدركه.

١٣ وبعد أن تشفى عيناها، ماذا يبقى عليها؟

أوغسطينس: أن ترى.

العقل: عين النفس هو العقل؛ ولكن لا يكفي دومًا أن تنظر لترى: النظر التامّ والمستقيم الذي يتبع الرؤية يسمّى أيضًا فضيلة؛ والفضيلة هي في الحقيقة استقامة وكمال العقل؛ على أنّ النظر لا يصوَّب إلى نور الأعين التي شفيت دون حضور دائم للثلاث التالية: الإيمان الذي يجعله يعتقد أنّ ما يجب أن يتوجّه بنظره إليه يضمن له السعادة؛ وثانيهما الرجاء الذي إذا حسُن تصويبه جعله يرى؛ وثالثهما المحبّة التي تجعله يتوق إلى رؤية مبتغاه والتمتّع به. النظر يوصل إلى رؤية الله، أي الغاية؛ وهذا لا يعني أنّ النظر لن يعود له وجود بل لن تعود له غاية يندفع إليها؛ وفي ذلك عينه، كمالٌ حقيقيّ للفضيلة وهو أنّ العقل يبلغ هدفه الذي هو الحياة السعيدة. على أنّ الرؤية ذاتها هي تلك الفكرة في النفس التي تجد كمالها في التعاون بين مَن يفكّر والفكرة ذاتها؛ والشيء ذاته قائم بالنسبة إلى الأعين حيث النظر يحتوي على اثنين: حاسة ترى وشيء محسوس حتّى إذا حذفت واحدًا منهما استحالت الرؤية.

VII - بعد الحصول على الرؤية تبقى المحبّة وحدها؛ ولكنّ الإيمان والرجاء ضروريّان ها هنا

١٤ حينما تصل النفس إلى رؤية الله علينا أن ندرس إذا كانت لا تزال بحاجة إلى تلك الفضائل الثلاث، وهل يبقى الإيمان ضروريًّا ما دامت النفس ترى؟ أو يبقى الرجاء ضروريًّا ما دامت النفس قد حصلت على مبتغاها؟ أمّا المحبّة فليس عليها ألّا تفقد شيئًا بل أن تنمو بشكل حسّيّ حتّى إذا ما رأت ذلك الجمال الفريد والحقيقيّ[٣] ازدادت حبًّا له؛ وإن لم يصوّب حبّ عظيم نظره إليها، مانعًا عليها كلّ تشتّت استحال عليها البقاء في تلك الرؤية السعيدة وما دامت قائمة في الجسد، ومتمتّعةً برؤية تامّة أي برؤية الله فالحواسّ تظلّ قائمة بدورها ولن تقوى على غشّها؛ إنّما تنجح في أن تثير فيها بعض الشكوك يحملها على أن تُؤثِر غايتها الحقيقيّة على أيّ شيء آخر. وإذا صحّ أنّ النفس تسعد منذ هذه الحياة بأن تعرف الله فلا بدّ لها من أن تشقى بسبب الجسد؛ وعليها أن تأمل بزوال تلك المشاكل بعد الموت. الرجاء لن يتخلّى عن النفس ما دامت فوق هذه الأرض. أمّا بعد الموت وعندما تتّحد مع الله فتبقى المحبّة وحدها لتثبتها في الله. إذ ذاك لن يبقى مجال لها لتقول بأنّها واثقة بحقيقة مبتغاها بعد أن يبطل بالنسبة إليها ضلال يناديها ويغريها. ولن يبقى أيّ شيء ترجوه وقد حصلت بطمأنينة وأمان على كلّ مبتغاها.

تبقى النفس بحاجة إلى شروط ثلاثة: السلامة والنظر والرؤية. الفضائل الثلاث أي الإيمان والرجاء والمحبّة. فالأولى

---

(٣) راجع الرقم ٥ في جمال الله.

والثانية ضروريّتان في الحياة الحاضرة والثالثة أيضًا. أمّا بعد هذه الحياة فالمحبّة وحدها كافية.

VIII – الله وحده يجعل سائر العلوم أهلًا لأن تُدرَك

١٥ أريد الآن، انطلاقًا من التشبيه الذي أخذناه عن المحسوسات، أن أتّخذ لمصلحتك، بقدر ما تسمح به الظروف الراهنة، بعض تعاليم حول الله بالذات.

الله هو قابلٌ لأن يُدرَك؛ وقابلة لأن تُدرَك أيضًا تلك البراهين العلميّة ولكن مع بعض فروقات رئيسيّة. وفي الواقع، مرئيّة هي الأرض والنور أيضًا؛ بيد أنّ الأرض لا تُرى ما لم تكن مُنارةً. وهكذا فإنّ تلك البراهين التي يقدّمها لنا العلم، لا يستطيع أن يشكّك بحقيقتها المطلقة كلّ مَن يفهمها. إنّما يجب على الإنسان أن يؤمن بأنّه لن يقوى على فهمها ما لم تسطع عليها أشعّة شمسٍ أخرى خاصّة بها. وعلى هذا النحو فكما نميّز في الشمس ثلاث خواصّ هي الوجود والإشعاع والنور، هكذا في هذا الإله الشديد الخفاء، الذي تريد أن تفهمه، ثلاث صفات هي أن يكون، ويكون مفهومًا، ويجعل ما تبقّى أهلًا لأن يكون مفهومًا.

أجرؤ على أن أعلّمك طريقة لكي تفهم ذاتك وتفهم الله، ولكن قل لي بأيّ شكل أنت قابل لها: هل تقبلها كطريقة محتملة أم حقيقيّة؟

أوغسطينس: ببساطة أقبلها كطريقة محتملة. ولقد بلغت أقصى درجة من الأمل وأنّي لأقرّ بذلك. ولكن بعد هاتين الملاحظتين، حول الخطّ والكرة، لم تقل لي شيئًا أجرؤ على أن أؤكّد أنّني أعرفه حقًّا.

العقل: لا عجب في ذلك لأنّني ما عرضت عليك حتّى الآن شيئًا يسمح لي بأن أفرض عليك فهمًا تامًّا.

IX – هل نظرتنا إلى الصداقة والثروة والمرأة سليمة؟

١٦ ولِمَ إضاعة الوقت؟ لننطلق فنرى أوّلًا إن كنّا، أخلاقيًّا، في صحّة جيّدة ما دام أن ذلك هو شرطٌ مسبق!

أوغسطينس: سوف تتحقّق من ذلك إن كنت قادرًا على أن تنظر قليلًا فيَّ أو فيك. سلني، حتّى إذا أحسستُ بشيء، أجاوبك.

العقل: أتحبّ شيئًا سوى معرفة الله ومعرفة ذاتك؟

أوغسطينس: أجاوب استنادًا إلى شعوري الحاليّ بأنّي لا أهوى شيئًا آخر؛ ولكن، بداعي الفطنة، أجيب بأنّي لست أعرف. لقد أظهرت لي الخبرة، بينما أظنّ بأنّي لا أشعر بأيّ شيء آخر، إنّ فكرة ما تراودني وتنخزني، كأنّها إبرة، بطريقة ما كنت لأتوقّعها. وهناك شيء ما يؤلمني أن أُفكّر فيه حتّى إذا تمّ زادني ألمًا ما كنت لأتوقّعه. في الوقت الحاضر لا أجد شيئًا يثير شعوري، على ما يبدو، أكثر من ثلاثة أشياء: الخوف من خسارة مَن أُحبّ والخوف من العذاب ومن الموت.

العقل: إذًا، أنت تحبّ أن تعيش مع مَن تحبّ. وتحبّ كذلك صحّتك الجسديّة، وإلّا لما كنت تخاف أن تفقدهم.

أوغسطينس: أنا من رأيك.

العقل: إذًا، حين لا يكون جميع أصدقائك معك وتكون منحرف الصحّة، تحزن؛ هذه هي النتيجة التي تظهر لي.

أوغسطينس: أنت على حقّ في ما تقول؛ وهذا ما لا أستطيع أن أنكره.

العقل: أمّا إن أحسست للحال بما لا شكّ فيه أنّ جسدك في حالة جيّدة ورأيت أحبّاءَك على أحسن ما يرام، ألا تشعر داخليًّا بنوع من الفرح العارم؟

أوغسطينس: أجل، إنّها لنشوة حقيقيّة حتّى إنّي لأقول لو أن تلك الخطوط الطيّبة تفاجئني غالبًا كما تقول لتساءلت كيف يمكنني أن أضبط شعوري ولا أستسلم إلى مثل ذلك الفرح العارم؟

العقل: أنت ما زلت تحت تأثير الأمراض والأهواء النفسيّة؛ فيا لجسارة أعين، كالتي لك، تبغي التطلّع إلى الشمس.

أوغسطينس: تستنتج من كلّ ما تقدّم ذكره كما لو أنّي لم أشعر بأيّ تقدّم أحرزته صحّيًّا وكم بقي من شقائي الذي خفّ كثيرًا. إسمح لي بأن أسطّر هذا التحفّظ.

X –

١٧ العقل: ألا ترى أنّ أعين الجسد السليمة تكون في أغلب الأحيان جرحى، تصدّها، عن النظر، شمسنا النيّرة، إلى نوع من الظلام؟ أنت تفكّر بالتقدّم الذي أحرزته؛ أمّا ما تتوق إلى رؤيته فلا تفكّر به! ومع ذلك أريد أن أناقش معك التقدُّم الذي تظنّ بأنّنا قد أحرزناه. ألا تريد المال؟

أوغسطينس: كلّا؛ وليس بالجديد عليَّ! لي الآن ثلاث وثلاثون سنة؛ وها قد مضى عليَّ أربع عشرة سنة لم أعد أفكّر به

ولو توفّر لي بعض المال فلا أجد فيه سوى السبيل للقيام بحاجاتي الضروريّة ومساعدة الآخرين. أجل، إنّه كتاب شيشرون[٤] الذي أقنعني بسهولة كلّيّة بالعزوف عنه، حتّى إذا توفّر لي، عليّ أن أديره بالقدر الأكبر من الحكمة والفطنة.

العقل: وما رأيك بالأمجاد؟

أوغسطينس: أقرّ وأعترف بأنّني منذ مدّة وجيزة تخلّيتُ عنها.

العقل: وما رأيك بزوجة؟ ألا تحبُّ أحيانًا أن تكون لك زوجة تتصوّرها جميلة، عفيفة، لطيفة ومثقّفة، أو على الأقلّ، مستعدّة لقبول توجيهاتك وعلى شيء من البحبوحة (ما دمت ترفض الثروة) كيلا تحمّلك أيّ عبء لتتفرّغ للدرس دون أن تتسبّب لك بأيّ إزعاج؟

أوغسطينس: يمكنك أن تصفها بكلّ ما هو مغرٍ، وتسبغ عليها كلّ ما تشاء من العطايا، فما من شيءٍ عزمت على تجنّبه أكثر من علاقة بامرأة؛ كلّا، لا شيء أكثر من مداعبة رجل لامرأة يحطّ فهم الرجل من أعلى الدرجات إلى أسفلها؛ أجل لا شيء من ذاك التلامس الضروريّ بين جسدين قيامًا لمساكنة زوجة. إن كان من واجب الإنسان الحكيم أن يكون له أولاد (أنا ما درست هذا الأمر) فالإنسان الذي يتّحد بامرأة تحقيقًا لتلك الغاية يبقى موضوع تقدير في نظري وليس مثالًا يحتذى؛ لأنّ الخطر في سلوك ذلك المنحى أكبر من السعادة في أن ينجح فيه. وأظنّ أنّني وفّرت الحرّيّة لنفسي كما يجب، فالتزمت العزوف عن

---

(٤) هرتنسيوس، راجع **الاعترافات ٧ ,III, IV**.

الزواج والتخلّي عن تلك الفكرة.

العقل: لست أسألك في الوقت الحاضر عمّا تقصد أن تقوم به، بل إن كان عليك أن تجاهد في ذاك السبيل أم إن كنت قد تغلّبت على الشهرة، وفي الواقع، أريد أن أعرف إن كانت عيناك سليمتين.

أوغسطينس: لا أطلب شيئًا مماثلًا ولا أسعى إليه؛ وبخوف وازدراء أستعيد تلك الذكريات، وهل تريد أكثر من ذلك؟ وهو عزم قويّ يتجدَّد فيَّ باستمرار؛ وإذا ما ازددت تقدّمًا في ذلك الاتّجاه، أتقدّم أكثر فأكثر وأزداد أملًا في رؤية ذلك الجمال الخاصّ الذي أتوق إليه؛ وإليه أتّجه بكلّ ما فيَّ من محبّة وشهوة.

العقل: وأيّ تأثير فيك لملذّات الطعام؟

أوغسطينس: إنّ ما صمّمت النيّة على ألّا أتناوله من الأطعمة لا يؤثّر فيّ؛ أمّا تلك التي لم أنقطع عنها فيطيب لي التمتّع بمنظرها. ولكن إن رأيتها ثمّ ذقت طعمها ورفعوها عنّي فلن أتأثّر حتّى إذا كانت بعيدة عن نظري فلا أشتهيها ولا تؤثّر في تفكيري. وبإيجاز لا تسألني شيئًا عن كلّ ما هو أكل وشرب، ولست أطلب من الحمامات وسواها التي تستطيبها الطبيعة سوى الضروريّ لصحّتي.

XI –

١٨ العقل: لقد أحرزت تقدّمًا محسوسًا، لكنّ الضعف الذي يلازمك يساهم كثيرًا في حجب النور عنك؛ إنّما أفكّر بوسيلة تجعلني أعرف، دون كبير عناء، إن كانت لا

تزال الشهوة فينا، فنسيطر عليها، أو كنّا قد تقدّمنا بعض الشيء، وما إذا كانت الرذائل التي فكّرنا بأنّنا قد اقتلعناها من الجذور لا يزال فسادها متأصِّلًا فينا. وعليه، فإنّي أطرح عليك السؤال التالي: إن كنت مقتنعًا بأنّك غير قادر على درس الحكمة مع أصدقائك وأحبّائك الكثيرين دون أن تكون لك ثروة طائلة تلبّي حاجاتك، أفلا تكون محبًّا للمال؟ ألا تتمنّى أن تكون ثريًّا؟

أوغسطينس: بلى!

العقل: وإن تبيّن لك أنّه بإمكانك أن تدفع إلى الحكمة بعدد كبير من الناس شرط أن تتبوّأ مرتبة عالية تزيد من سلطتك، ورأيت أنّ أصدقاءك عاجزون عن كبح جماح شهواتهم وعن السعي إلى الله بكلّيّتهم، إلّا إذا كانت لهم مراكز عالية يعجزون عن الوصول إليها إلّا بفضلك وبما أنت عليه من جاه، أفلا ترى أنّه يجب عليك آنذاك أن تصبو إليه وتعمل بجدّيّة وصولًا إليه؟

أوغسطينس: أجل، هذا صحيح.

العقل: أمّا الزواج فإنّي أتوقّف عن الحديث عنه. وفي الواقع، قد لا يكون اتّخاذ امرأة شيئًا ضروريًّا. أمّا إذا كانت زوجتك على قدر من الثروة يمكّنك من تلبية حاجات مَن ترغب في جمعهم حولك، في جوّ من الدرس مريح قبلتَ به بطيبة خاطر، وإذا كانت بما هي عليه من طيب المحتد والجمال تستطيع أن توصلك إلى المراتب العالية التي اعترفْتَ أنت بضرورتها، إذ ذاك أتساءل:

هل عليك أن تنبذ ما يتوفّر لك من مكاسب؟

أوغسطينس: ولكن، متى تكون لي الجرأة على عقد تلك الآمال؟

١٩ العقل: أنت تقول هذا كما لو كنتُ أسعى الآن إلى ما أنت ترجوه. إنّي لست أسألك ما لا يجرّبك حين يرفضونه لك، بل ما يجرّبك حين يقدّمونه لك. شيء هي النكبة المنطفئة نارها وشيء آخر هي التي خفتت نارها. وبهذا المعنى استطاع حكماء أن يقولوا إنّ جنون الحمقى لشبيه برائحة كريهة تتصاعد من الأقذار لا يشمّها الإنسان دائمًا بل عندما يحرّكها. وإنّه لفرق كبير بين شهوة نبذتها النفس، لأنّها لا ترجو منها شيئًا، وبين أخرى قضت عليها النفس السليمة.

أوغسطينس: لست قادرًا على الجواب، لكنّك لن تنجح في إقناعي بأنّ حالتي النفسيّة اليوم ليست على تقدّم.

العقل: هذا هو رأيك على ما أظنّ لأنّك كنت تريد تلك الخيور المتنوّعة، لا حبًّا بها، بل حبًّا بشيء آخر، تطلبها رغبةً فيها.

أوغسطينس: حقًّا، ذاك ما أردت أن أقوله. حين طلبت الثروة في الماضي، فلكي أكون غنيًّا، طلبتها. أمّا الأمجاد التي قلت لك عنها إنّني منذ مدّة وجيزة كظمتُ شهوتها فلأنّي لم أعرف شيئًا فيها يستهويني، طلبتها؛ وطوال تفكيري بالزواج فالذي كنت أسعى إليه هي اللذّة دون السمعة العاطلة؛ وكنت أشعر نحو تلك الأشياء، بميل شهوانيّ حقيقيّ. أمّا اليوم فلست أشعر تجاهها إلّا بالاحتقار، حتّى إذا كان عليَّ أن أمرّ بها، وصولًا إلى هدف معيّن،

فلست أطلبها، حبًّا بها، بل كأنّها شرط واجبٌ عليّ القبول به، وصولًا إلى مبتغاي.

العقل: إنّه لشيء جميل؛ لأنّني لا أعتقد بأنّه يجب استعمال لفظة شهوة في ما هو ضروريّ وصولًا إلى شيء آخر.

XII - كلّ شيء مطلوب في سبيل الحكمة

٢٠ إنّما أسألك عن الأصدقاء هؤلاء الذين تحبّهم بهذا المقدار، لماذا تريد لهم أن يعيشوا ويعيشوا معك؟

أوغسطينس: للبحث معًا، بقلب واحد، لكي نعرف أنفسنا ونعرف الله؛ وعلى هذا النحو، فأوّل مَن يسعد بوجود الحقيقة يقود إليها الآخرين دون عناء.

العقل: ولكن إذا رفض أصدقاؤك القيام بذاك البحث؟

أوغسطينس: أقنعهم بذلك.

العقل: وإن لم تنجح، إمّا لأنّهم يتصوّرون بأنّهم قد اكتشفوا ذلك أو لأنّهم ظنّوه شيئًا مستحيلًا أو لأنّ لديهم همومًا وأمورًا أخرى تمنعهم من القبول بذلك المشروع؟

أوغسطينس: نكون كما نقدر أن نكون مع بعضنا بعضًا.

العقل: أمّا إذا كان حضورهم مناهضًا لأبحاثك أفلا تتألّم؟ ألا ترغب في فصلهم عنك إذا لم يقدروا على أن يغيّروا ما هم به أو عليه؟

أوغسطينس: أنا من رأيك.

العقل: هذا يعني أنّك تريد أن يعيشوا أو يكونوا معك، ليس حبًّا لهم، بل طلبًا للحكمة.

أوغسطينس: أوافق كلّيًّا على ما تقول.

العقل: لو كانت حياتك الشخصيّة مانعًا لك من امتلاك الحكمة، فهل تحافظ عليها؟

أوغسطينس: أهرب منها عمدًا.

العقل: ولكن إن عرفت أنّك تستطيع الحصول على الحكمة، إمّا بالتخلّي عن جسدك أو بالبقاء متّحدًا فيه، فهل تفضّل التمتّع بذاك الخير الذي تحبّ، هنا أم في حياة أخرى؟

أوغسطينس: لو أنّي كنت مقتنعًا بأنّني لن أجد أسوأ من حالتي الحاضرة، يجعلني أخسر ما حصلت عليه، لما تردّدت في قبوله.

العقل: وعلى هذا النحو، فأنت لا تخشى حاليًّا الموت إلّا خوفًا من الوقوع في حالة أسوأ تحرمك من أن تعرف الله؟

أوغسطينس: لا أخشى فقط من أن أجد ذاتي محرومًا ممّا قد حصلت عليه، بل أخاف أيضًا من أن تغلق بوجهي الطريق إلى ما أتوق إليه. ولهذا فإنّي أرجو أن أحتفظ بما حصلت عليه حتّى الآن.

العقل: وهكذا فإنّك متمسّك بالحياة الحاضرة، لا عن رغبة فيها بل سعيًا إلى الحكمة.

أوغسطينس: لا شكّ في ما تقول!

٢١ العقل: يبقى الألم الجسديّ الذي قد تخشى مفاعيله؟

أوغسطينس: لست أخشاه إلّا لأنّه يعطّل سعيي. كنت أتألّم في هذه الأيّام الأخيرة من وجع قويّ في أضراسي، حتّى إنّي لم أعد أفكّر إلّا بما كنت أعرفه، لأنّ الجديد يتطلّب منّي قوّة انتباه كنت عاجزًا عن الحصول عليها، حتّى خيّل إليَّ أنّني فقدت ذلك الوجع أو عبثتُ به لو ظهرت لي الحقيقة بنورها الوضّاح. ما شعرت قطّ في

حياتي بمثل ذلك الوجع الحادّ؛ ومع ذلك فحين أفكّر بما قد يصيبنا من أوجاع أصعب وأشدّ، لا يسهل عليّ القبول برأي كرنيليوس سلسوس(٥) Cornelius Celsus القائل إنّ الحكمة هي أسمى الخيور والألم الجسديّ هو الشرّ الأقوى. ويعطي شرحًا قد يكون مقبولًا؛ ما دمنا مركّبين من نفس وجسد فالنفس هي الجزء الأفضل والجسد هو الأقلّ خيرًا. الخير الأسمى هو أفضل خير فينا؛ علمًا بأنّ الخير الأعظم للنفس هي الحكمة، والشرّ الأكبر للجسد هو الألم. وينتج عن ذلك أنّ خير الإنسان الأسمى الحكمة وشرّه الأسوأ الألم. وهي نتيجة لا غبار عليها كما تبدو لي.

العقل: سنرى ذلك في ما بعد. مَن يدري إن لم توحِ إلينا هذه الحكمة التي نحاول الوصول إليها بحكمة أخرى حتّى إذا أظهرت لنا صحّة ذلك الرأي نتبنّاه، بلا تردّد بشأن الخير الأسمى والشرّ الأسوأ.

XIII - طرق متنوّعة توصل إلى الحكمة

٢٢ إنّ ما نسعى إليه الآن هو كيف تحبّ الحكمة. أنت تريد أن تراها، وتمتلكها حرّة من كلّ حجاب، عريانة، إن تجرّأت على القول، بنظرات وعناقات طاهرة لا غبار عليها ولا لوم! إنّها حظوة لا تسمح بها إلّا لعدد قليل ممّن اختارتهم لها أحبّاء. لو أحببت امرأة جميلة لحُقَّ لها أن ترفضك إن وجدتك ميّالًا إلى

(٥) ظهر في الجيل الميلاديّ الأوّل وترك مجموعة كتب في الطبّ.

أخرى. هل تنكشف لك الحكمة يا ترى على جمالها النقيّ الطاهر لو عرفتْ أنّها ليست حبيبتك الوحيدة.

أوغسطينس: آه! ولِمَ هذا التأخير الذي يشقّ عليّ كثيرًا؟ ولِمَ هي هذه المواعيد التي تعذّبني؟ أجل، لقد بيّنت أنّي لا أحبّ سواها إن كان الحبّ لشيء آخر مغايرًا لحبّها فهذا لا يعني أنّني أحبّها! على أنّني لا أحبّ إلّا الحكمة لذاتها: أمّا الباقي كالحياة والراحة والأصدقاء فإنّي لا أريده ولا أخشى أن أخسره إلّا من أجلها. وما هي الحدود التي تضعها محبّتي لهذا الجمال؟ أنا لا أحسد الآخرين عليها، ولكنّي أحثّ أكبر عدد من الناس، ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، على السعي معي إليها وامتلاكها والتمتّع بها واعتبرهم من أعزّ أصدقائي إذا تقاسمنا على السواء حبّها!

٢٣ العقل: هكذا يجب أن يكون محبّو الحكمة! وهكذا تريدهم تلك الصديقة التي بها يتّحدون بالعفّة دون أيّة وصمة. ولكن هناك أكثر من سبيل إليها[٦]. كلّ إنسان، بحسب صحّته ونشاطه يعانق بشكل أو بآخر هذا الخير، الوحيد، الحقّ. إنّها لشبيهة بنور العقول، غير الموصوف وغير المدرك. إنّ نورنا العاديّ يعطينا، إلى حدٍّ ما، فكرة عنه. هناك أعين سليمة وقويّة تدور بلا تردّد نحو الشمس. فالنور بالنسبة إليها صحّة. وليسوا بحاجة إلى معلّم بل هم بحاجة إلى توجيه بسيط. يكفيهم الإيمان والرجاء والمحبّة. بل هناك

(٦) أحبَّ أوغسطينس أن يصحّح هذا فكتب يقول فيما بعد: لقد أخطأت بكتابة ذلك، إذ ليس من طريق خارجًا عن يسوع القائل: «أنا هو الطريق».

آخرون يجرحهم بهاء هذا الجمال الذي يتوقون بشدّة إلى النظر إليه، وإذ لا يستطيعون الصمود أمامه يقعون بسهولة في الظلمات، حتّى لو اعتُبِروا بصحّة جيّدة فمن الخطر أن نظهر لهم ما ليسوا قادرين على النظر إليه. من الضروريّ أن ندرّبَهم في بداية الأمر ومن مصلحتهم أن يتغذّى الحبّ فيهم قبل أن نكفيهم. ومن ثمّ يقدَّم إليهم أوّلًا أشياء ليست نيّرة بذاتها بل بواسطة النور الذي يسلّط عليها؛ مثلًا قطعة قماشٍ وحائط إلخ... ومن ثمّ تقدَّم الأشياء التي لا تأخذ من ذاتها بل من النور سطوعًا أوسع كالذهب والفضّة إلخ... وهو سطوع لا يسعه أن يجرح العيون. ومن ثمّ نحاول، بتؤدةٍ، أن نبيّن لهم النار ثمّ الكواكب كالقمر مثلًا وبزوغ الفجر وطلوع النهار. وتتوالى التمارين، بسرعة مختلفة، فتكون إمّا متلاحقة أو بالتخلّي عن هذا التمرين أو ذاك، بحسب قدرة كلّ واحد، وصولًا إلى التمرين الأخير الذي يعوّد على النظر إلى الشمس بلا وجل وبشيء من الانشراح.

ذاك هو الأسلوب الذي يتبعه الأساتذة المدرّبون مع العقول التي تهوى الحكمة والذين تفتّحت عيونهم ولا تزال بحاجة إلى الحدّة. هذا هو واجب المعلّم الصالح الذي لا يوفّر قاعدة وصولًا إلى الحكمة. أمّا الوصول إليها، بدون هذه الطريقة، فهو أمر منوط بالحظّ(٧).

حسبنا اليوم ما كتبناه، على ما يبدو لي، مراعاةً لصحّتك.

---

(٧) يوجز أوغسطينس أفكار أفلاطون في شأن الاستنارة L'illumination.

المبدأ الكبير

XIV - المبدأ الكبير يفرض «الهروب من المحسوسات»

(ملاحظة: يقول أوغسطينس عليَّ أن أتجنّب التظاهر بالميل إلى حكمة بورفيروس الخاطئة التي تؤكّد على ضرورة الهرب من كلّ ما هو جسد).

٢٤ أوغسطينس: وفي اليوم التالي قلت له: بحقّك، علّمني الطريقة إن استطعت. هيّا، خذني أنّى شئت، كما تشاء وكيفما شئت. أفرض عليّ من الامتحانات أشدّها صعوبة وضراوة، شرط أن تكون في متناولي، إن أكّدت لي بأنّها توصلني إلى الهدف الذي أحلم بالوصول إليه.

العقل: لي مبدأ واحد أعطيكه؛ ولست أعرف غيره وهو الهروب التامّ من جميع المحسوسات، وهو أن نكون حذرين ما دمنا نحمل هذا الجسد الأرضيّ، من أن يشلّ دبقه حركة أجنحتنا لأنّنا نحتاج إليها سليمة وممتازة لننطلق من هذه الظلمات إلى ذلك النور، ويظهر لأولئك السجناء إلّا إذا تكسّرت أو حلّت تلك السلاسل التي تقيّدهم ليتمكّنوا من الانطلاق إلى الجوّ الذي يسطع فيه ذلك

النور، وإذ تصبح أهلًا لأن تتحرّر من أهوائك الأرضيّة، صدّقني بأنّك، للحال، وفي الثانية عينها، سوف ترى ما تريد.

أوغسطينس: متى يصير ذلك؟ أسألك عنه لأنّي أشكّ في قدرتي على الوصول إلى ذلك الاحتقار الكلّيّ، قبل أن أرى ذلك الخير الذي لا يدانيه خير.

٢٥ العقل: ذاك ما تستطيع أن تقوله أيضًا عيننا الجسديّة: «لن أكفّ عن محبّة الظلمات إلّا عندما أرى الشمس.» ويبدو أنّ هذا هو أيضًا من النظام إنّما بشكل آخر. العين تحبّ الظلمات لأنّها مريضة ويجب عليها أن تكون سليمة وبصحّة جيّدة لترى الشمس. غالبًا ما تنخدع النفس حين تظنّ أنّها بصحّة جيّدة وتفاخر بذلك؛ وبما أنّ نظرها قاصر عن أن يرى، تعتقد بأن من حقّها أن تتشكّى. إنّما الجمال الكلّيّ يعرف متى يجب أن يظهر: دوره مماثل لدور الطبيب، ويعرف بشكل أفضل مَن يتمتّعون بالصحّة حقًّا من أولئك الذين لا يدرون ويخضعون لعلاج. أمّا نحن فنظنّ أنّنا نرى المسافة التي قطعناها من اللجّة؛ أمّا القعر الذي كنّا فيه غارقين وإليه وصلنا، فلا يحقّ لنا لا أن نتخيّله ولا أن نستشعره، حتّى إنّنا نظنّ، إذا قارنّا بين ما كنّا عليه من خطر وألم زال، بأنّنا في صحّة جيّدة. ألا ترى بأيّة طمأنينة أكّدنا البارحة بأنّنا لم نعد تحت أيّ تأثير لمرض أدبيّ، وأصبحنا نحبّ الحكمة دون سواها، ونسعى إلى الخير الوحيد الذي يوصلنا إليها؟ ما كان أسفل الحبّ وأكرهه

ساعة ناقشنا قضيّة الزواج! ومع ذلك، في هذه الليلة بالذات، ساعة استيقظنا واستعدنا الحديث معًا شعرت، لمجرّد أنّك تصوّرت تلك الملذّات، بتأثير شهوانيّ يدغدغ عواطفك حاملًا معه حلاوة مرّة ما كنت لتتوقّع مثيلًا له. إنّه لشعور أضعف ولا شكّ ممّا تعوّدته؛ إنّما بخلاف ما كنت تظنّ. وعلى هذا النحو فإنّ الطبيب الداخليّ كشف لك في الوقت عينه، عن المرض الذي شفاك منه وما بقي منه قيد المعالجة.

٢٦ أوغسطينس: آه! أسكت! بحقّك، اسكت! ولِمَ تعذّبني بهذا الشكل؟ ولِمَ تحفر قلبي وتغوص فيه إلى الأمام؟ لم أعد أتمالك عن البكاء ولست أعد بشيء البتّة؛ ولا أفاخر بشيء ولا تسألني أيّ شيء. أنت تقول إنّ الذي أتحرّق إلى النظر إليه يعرف متى أكون بصحّة جيّدة ليعمل ما يطيب له، وليظهر لي ساعة يشاء؛ من الآن وصاعدًا أَكِلُ ذاتي إلى رأفته ورعايته. إنّي مقتنع كلّيًّا بأنّه لن يتأخّر عن نجدة أولئك الذين يعلنون عن ثقتهم به؛ ولن أقول شيئًا عن صحّتي النفسيّة قبل أن أرى جماله الإلهيّ.

العقل: بالتأكيد، هذا هو أفضل ما يمكنك أن تعمله. ولكن، إيّاك والبكاء! إستعدْ شجاعتك! لقد ذرفت دموعًا غزيرة أضرّتْ بمرضك الصدريّ.

أوغسطينس: أأنت تريد أن تضع حدًّا لبكائي بينما لا أرى نهاية لشقائي؟ أوتطلب منّي أن أعتني بصحّتي الجسديّة بينما لا أزال في اهتراء باطنيّ؟ بحقّك، إن استطعت أن

تعمل شيئًا لأجل اسمي فحاول أن تقودني على طريق مختصر؛ قرّبني قليلًا من ذلك النور الذي يجب أن يسمح لي بالدنوّ من بهائه ما أحرزتُ من تقدّم. إجعلني أخجل من توجيه عينيّ إلى تلك الظلمات التي تخلّيتُ عنها. ولكن هل لي أن أقول إنّني قد تخلّيت عنها في حين عماي لا يزال يجد فيها بعض الجاذبيّة؟

XV - النتيجة: في ضرورة معرفة الحقيقة

٢٧ العقل: فلنبتّ الأمر: أتريد هذا الكتاب الاوّل؟ سوف نتّخذ في حديثنا الثاني الطريق السهل. إنّ الشهوة التي تسيطر عليك تحتاج إلى تمرين معتدل ودون توقّف.

أوغسطينس: كلّا، لا أريد أن أغلقه قبل أن تكشف لي قليلًا عمّا أتوق إلى معرفته بحماس. هل تجدني أقرب إلى النور؟

العقل: إنّ الطبيب الذي كنت أتكلّم عنه يشعر بميل إليك، لأنّني لست أدري أيّ لهب ناريّ يضربني ويدعوني إلى أن أقودك. خذ كلماتي هذه باهتمام واحفظها.

أوغسطينس: خذني، بحقّك؛ خذني حيثما تشاء.

العقل: حسنًا، تقول إنّك تريد أن تعرف النفس والله؟

أوغسطينس: هذا هو كلّ مناي.

العقل: لا شيء أكثر؟

أوغسطينس: لا شيء على الإطلاق.

العقل: ألا تريد أن تعانق الحقيقة؟

أوغسطينس: كما لو كنت بدونها أقدر أن أعرف ما أبحث عنه!

العقل: عليك أن تعرف أوّلًا ما يساعدك على معرفة الباقي.

أوغسطينس: أوافق.

العقل: لنرَ أوّلًا إن كانت هاتان اللفظتان: الحقيقة والحقّ تعبّران عن شيئين أو عن شيء واحد.

أوغسطينس: يبدو أنّهما يعبّران عن شيئين: مثلًا، شيء هي العفّة، وشيء هو العفيف، وهلمَّ جرّا. وأظنّ أنّ الحقيقة شيء والحقّ شيء آخر.

العقل: أيًّا منهما تضع في الصفّ الأوّل؟

أوغسطينس: الحقيقة، على ما أظنّ؛ ليس العفيف هو الذي يصنع العفّة؛ إنّما بالعفّة يكون الإنسان عفيفًا. وهكذا حينما يكون الشيء حقيقيًّا، فمن الطبيعيّ أن يكون هكذا بالحقيقة.

٢٨ العقل: ولكن حينما يموت إنسان عفيف، فهل تظنّ أنّ العفّة تموت معه؟

أوغسطينس: أبدًا.

العقل: إذًا عندما يزول شيء ما حقيقيّ فالحقيقة لا تزول بزواله.

أوغسطينس: ولكن كيف يمكن لما هو حقيقيّ أن يزول؟ وأنا لست أدرك ذلك جيّدًا.

العقل: أعجب لمثل هذا السؤال. ألسنا نرى ألف شيء يزول أمام أعيننا؟ هل يمكنك أن تفكّر أنّ هذه الشجرة أو أنّها شجرة ليست حقيقيّة أو في كلّ حال لا تزول؟ حتّى ولو لم تعتمد في إيمانك على شهادة الحواسّ أو استطعت أن تجيبني بأنّك تجهل كلّيًّا إن كانت شجرة فلست تُنكِر أقلّه إن كانت شجرة فهي شجرة حقيقيّة: ذاك رأي لا يستند إلى الحواسّ بل إلى العقل. إن كانت شجرة كاذبة

فليست شجرة؛ ولكن إن كانت شجرة فيجب أن تكون شجرة حقيقيّة.
أوغسطينس: أوافق على ما تقول.
العقل: ولكن، هذا ليس كلّ شيء! ألا توافقني القول إنّ من طبيعة هذه الشجرة أن تولد وتموت؟
أوغسطينس: لا أقدر أن أنكر ذلك.
العقل: يعني ذلك أنّ في الطبيعة أشياء حقيقيّة تزول.
أوغسطينس: لست أمانع.
العقل: وبعد؟ ألا ترى أنّه لمجرّد أنّ هنالك أشياء حقيقيّة تزول، أنّ الحقيقة لا تزول كما هي حال العفّة عندما يموت إنسان عفيف؟
أوغسطينس: أوافق أيضًا، وبفارغ الصبر أريد أن أعرف أين تريد أن تصل؟
العقل: إذًا، أصغِ إليَّ جيّدًا.
أوغسطينس: أنا حاضر.

٢٩ العقل: هل يبدو لك هذا العرض حقيقيًّا وهو «إنّ كلّ ما هو موجود، موجود حتمًا في مكانٍ ما».
أوغسطينس: ما من حقيقة تفرض عليَّ ذاتها أكثر من هذه.
العقل: أَوَ تعترف جيّدًا أنّ الحقيقة موجودة؟
أوغسطينس: أجل، أعترف.
العقل: علينا إذًا أن نبحث عن مكان وجودها. إنّها ليست في المجال الجوّيّ إلّا إذا قبلنا بأنّ في الجوّ ما ليس بجسد، أو قلنا إنّ الحقيقة جسد.
أوغسطينس: أرفض هاتين الفرضيّتين.

العقل: أين تعتقد إذًا بأنّها موجودة ما دمنا قبلنا بوجودها؛ فمن الضروريّ أن يكون لها مكان توجد فيه.

أوغسطينس: لو كنت أعرف أين هي لاكتفيت بذلك.

العقل: ولكن هل لك أن تعرف على الأقلّ حيث لا تكون؟

أوغسطينس: لو ساعدتني على التفكير لربّما عرفت.

العقل: بكلّ تأكيد، لا وجود لها في ما يزول، لأنّ القائم في الآخر لا يبقى إلّا إذا بقي هذا الآخر واستمرّ. الحقيقة تستمرّ وتبقى ولو زالت الأشياء الحقيقيّة وأنت قبلت منذ قليل بهذه الفكرة. وعليه، فالحقيقة ليست في الأشياء الصائرة إلى زوال، ومع ذلك فهي موجودة ويجب أن تتّخذ محلًّا ما. ومن ثمّ فهناك أشياء لا تموت. إنّما لا شيء حقيقيّ إن لم تكن الحقيقة فيه وليس بحقيقيّ إلّا ما لا يموت. شجرة زائفة ليست بشجرة وخشبة زائفة ليست بخشبة؛ وفضّة زائفة ليست بفضّة. وبكلمة واحدة، كلّ ما هو زائف لا كيان له. علمًا بأنّ ما ليس حقيقيًّا زائف هو. وبصريح العبارة، لا كيان لشيء إلّا إذا كان لا يموت.

المبدأ الكبير

فكِّر مليًّا بهذا الاستصواب البسيط لنرى إن كان لك تحفّظات؛ فإن قبلته أنهينا تقريبًا مهمّتنا، كما سوف نراه بشكل أفضل في الكتاب التالي.

٣٠ أوغسطينس: شكرًا لك. ها أنا ماضٍ بما يوفّره لي الصمت حيث نعيش في عناية وحذر لكي ندرس معًا هذه الأفكار، شرط ألّا تعكّر الظلمات تفكيري فأشعر

بإغراءاتها، وهذا ما أخشاه فوق كلّ شيء.

العقل: لا تفقد ثقتك بالله. إستسلم إليه كلّيًّا وبحسب ما تسمح لك قواك، ولا تحاول أن تكون لأحد بل كن مستقلًّا بنفسك، وجاهر بأنّك تكون عبدًا لله الكلّيّ الرأفة والصلاح إذ ذاك يشدّك إليه باستمرار ولا يسمح لك إلّا بكلّ ما ينفعك، وعلى غير علم منك.

أوغسطينس: إنّي أستمع وأومن وأطيع بقدر ما أستطيع. أسأل الله بإلحاح أن يزيدني قوّة. وهل تريد منّي أكثر؟

العقل: هذا يكفي، حاضرًا؛ وسوف تعمل بعدئذٍ كلّ ما يأمرك به.

I - الكتاب الثاني: رغبة أوغسطينس في البحث عن خلود النفس

١ أوغسطينس: لقد توقّفنا طويلًا عن العمل. الحبّ لا يعرف الصبر ويبكي باستمرار طلبًا لما يحبّ. علينا إذًا أن نبدأ كتابنا الثاني.

العقل: فلنبدأ.

أوغسطينس: لنضع ثقتنا بالله الذي سوف يساعدنا.

العقل: أجل، لنثق به إن كنّا قادرين على ذلك.

أوغسطينس: قوّتنا في الله.

العقل: أدعُه بما تقدر عليه من الإيجاز وبالأسلوب الأفضل.

أوغسطينس: أللّهمَّ، أنت أبدًا أنت، اجعلني أعرف ذاتي وأعرفك! أنهيت صلاتي.

العقل: أنت تريد أن تعرف ذاتك، أتعرف أنّك موجود؟

أوغسطينس: أعرف ذلك.

العقل: كيف تعرفه؟

أوغسطينس: لست أدري.

العقل: أتعرف إن كنت كائنًا بسيطًا ومركّبًا؟

أوغسطينس: لست أدري

العقل: أتعرف إن كنت تتحرّك؟

أوغسطينس: لست أدري.

العقل: أتعرف إن كنت تفكّر؟

أوغسطينس: أعرف ذلك.

العقل: حقًّا إنّك تفكّر

أوغسطينس: حقٌّ هو ذلك[١].

العقل: أتعرف إن كنت لا تموت؟

أوغسطينس: لست أدري.

العقل: بين كلّ الأشياء التي تعترف بأنّك تجهلها، ما هو الشيء الذي تريد أن تعرفه أوّلًا؟

أوغسطينس: إن كنت لا أموت.

العقل: إذًا أنت تحبّ أن تعيش؟

أوغسطينس: أجل، أحبّ أن أعيش!

العقل: وعليه، فحين تعرف أنّك غير مائت، هل تقتنع؟

٢ أوغسطينس: ذاك شيء كثير إنّما قليل جدًّا بالنسبة إليَّ.

العقل: ألا يتسبّب لك هذا القليل بفرح عظيم؟

أوغسطينس: إنّه لفرح كبير.

---

(١) حدَّد أوغسطينس في مقالته **عن الثالوث XIII, IV, VIII** وفي **مدينة الله X, XXIX** أنّ الإنسان يتوق إلى الخلود.

العقل: ألا تعود تبكي؟

أوغسطينس: أبدًا، أبدًا.

العقل: ولكن إن وجدنا أنّ الحياة تعني أنّك طوالها لا تستطيع أن تزيد معارفك عمّا هي عليه، فهل تضع حدًّا للبكاء؟

أوغسطينس: بالعكس، سوف أبكي وأزداد بكاءً لأضع حدًّا لحياتي.

العقل: إذًا، أنت لا تحبّ الحياة من أجل الحياة بل لأجل المعرفة تحبّها.

أوغسطينس: أقبل بهذه النتيجة.

العقل: حتّى وإن كانت المعرفة تجعلك تعسًا؟

أوغسطينس: لا أعتقد أنّ هذا يمكن أن يكون. لا أحد يستطيع أن يكون سعيدًا بهذا الثمن. وفي الحاضر، الجهل هو السبب الوحيد لتعاستي. إن كانت المعرفة تجعل الإنسان تعسًا إذ ذاك فشقاؤنا أبديّ.

العقل: إنّي أرى الآن كلّ ما تريد. ما دمت قد اقتنعت بأنّ العلم لا يجعل الإنسان تعسًا فمن المحتمل برأيك أنّ العلم يجعله سعيدًا. ولكن لا سعيد إلّا الحيّ ولا حيّ إن لم يكن؛ أنت تريد أن تكون وأن تحيا وتعلم؛ أن تكون لتحيا وأن تحيا لتعرف. أنت تعرف أنّك موجود وتعرف أنّك تحيا وتعرف أنّك تفهم؛ ولكن، هل يبقى هذا على الدوام أو لا شيء منه يستمرّ؟ هل من خير يبقى إلى الأبد وآخر يزول؟ وهل هذه الخيرات كلّها مؤهَّلة لأن تنقص أو تزيد في حال استمرارها ذاك هو ما تريد أن تعرفه؟

أوغسطينس: صحيح.

العقل: وعليه إن برهنَّا أنّنا سنعيش إلى الأبد فهذا يعني أنّنا «باقون إلى الأبد».

أوغسطينس: صحيح.

العقل: لن يبقى سوى مسألة المعرفة.

II – الحقيقة باقية ولو زال العالم

أوغسطينس: إنّ طريقتك تبدو لي واضحة كما هي قويمة.

العقل: حذار. أجب على أسئلتي بفطنة وثبات.

أوغسطينس: حاضر!

العقل: إن كان، على هذا النحو، يستمرّ إلى الأبد، فهل يعني أنّه باقٍ إلى الأبد؟

أوغسطينس: ومَن ذا الذي يشكّ بذلك؟

العقل: وإن لم يكن عليه أن يستمرّ، فهل صحيح أنّه لن يستمرّ؟

أوغسطينس: لا أعترض.

العقل: وعندما يزول، ما كان عليه أن يزول، ألا يكون صحيحًا زواله؟ لأنّه ما دام لا يصحّ أنّ الكون يزول فيعني أنّه باقٍ. من التناقض أن يقول الإنسان إنّ الكون زال وليس حقيقيًّا أنّ الكون قد زال.

أوغسطينس: موافق أيضًا.

العقل: وهذا؟ هل يمكن أن يكون شيءٌ ما حقيقيًّا إن لم يكن من وجود للحقيقة؟

أوغسطينس: مستحيل.

العقل: إذًا فالحقيقة تستمرّ حتّى ولو زال الكون؟

أوغسطينس: لن أقوى على إنكار ذلك.

العقل: وإن كانت الحقيقة عينها تزول أليس صحيحًا أنّ الحقيقة قد زالت؟

أوغسطينس: ومَن يستطيع أن يقول العكس؟

العقل: لا يمكن لأيّ شيء أن يكون حقيقيًّا إن لم تكن الحقيقة موجودة.

أوغسطينس: وافقت على قولك هذا منذ قليل.

العقل: إذًا فالحقيقة لا يمكن لها أن تزول.

أوغسطينس: كمِّل كما بدأت إذ لا أصحّ ممّا تفكّر فيه.

III - نحن شيء والإحساس شيء آخر

٣ العقل: أجبني الآن: برأيك، هل النفس هي التي تشعر أم الجسد؟

أوغسطينس: النفس تشعر، على ما أظنّ.

العقل: وهل ترى أنّ العقل متعلّق بالنفس؟

أوغسطينس: أجل وبلا شكّ.

العقل: وهل هو متعلّق بالنفس وحدها أم بأيّ شيء آخر؟

أوغسطينس: ما عدا الله؛ لست أرى مركزًا للعقل سوى النفس.

العقل: لندرس الآن هذه النقطة. إن أكّد لك أحدهم أنّ هذا الحائط ليس بحائط بل شجرة فماذا تقول؟

أوغسطينس: إنّه هو يحسّ خطأً أو أنا أُخطئ فيسمّي شجرة ما أسمّيه حائطًا.

العقل: ولو أنّ هذا الحائط بدا له بصورة شجرة ولك بصورة حائط ألا تكون هذه الصورة المزدوجة حقيقيّة؟

أوغسطينس: كلّا، ولا بأيّ شكل من الأشكال: إذ لا يمكن لواحد أن يكون في الوقت عينه شجرة وحائطًا. صحيح أنّ كلّ واحد منّا يراه على طريقته؛ ولا بدّ لأحدنا من أن يكون مخدوعًا.

العقل: وإن لم يكن لا حائطًا ولا شجرة وكلاكما على خطأ؟

أوغسطينس: ممكن.

العقل: هذا ما لم تكن قد فكّرت فيه منذ هنيهة.

أوغسطينس: أقرّ بذلك.

العقل: ولكن إن لاحظت أنّ الشيء مخالف لما يبدو لك فهل هذا يعني أنّك خُدِعت؟

أوغسطينس: كلّا!

العقل: يجب القبول بأنّ الانخداع لا يعني رؤية مظاهر مغشوشة بل اعتبارها حقيقيّة.

أوغسطينس: أوافق.

العقل: ولِمَ الخطأ هو خطأٌ إذًا؟

أوغسطينس: لأنّه على غير ما يظهر لك.

العقل: وعليه إن لم يكن أحد يظهر له الخطأ خطأً. إذ ذاك فما من شيء خطأ؟

أوغسطينس: إنّه لكلام منطقيّ.

العقل: الخطأ ليس إذًا في الشيء بل في الحواسّ. الإنسان الذي يرفض القبول بالمظاهر الخاطئة لا يخطئ. وينتج عن ذلك أنّنا وحواسّنا على خلاف ما دامت حواسُّنا تخطئ ونحن لا نخطئ.

أوغسطينس: ليس لي ما أخالفك عليه.

العقل: هل تجرؤ على أن تقول إنّك لعلى صواب حينما تخطئ تخطأ النفس؟
أوغسطينس: وكيف لي أن أقول ذلك؟
العقل: وإذًا، لا شعور بلا نفس؛ ولا خطأ بلا حواسّ؛ وإلّا فالنفس إمّا أن تكون سبب الخطأ أو حليفة له.
العقل: يجب القبول بكلّ ما تقول.

٤ العقل: أجبني الآن على ما يلي: هل ترى أنّه لا يمكن أن يكون خطأٌ أحيانًا؟
أوغسطينس: كيف لي أن أفكّر بما تقول؟ يصعب جدًّا وجود الحقيقة، ومن المحال القول بأنّ الخطأ لا يمكن أن يكون ومن غير الممكن.
العقل: أتعتقد بأنّ مَن لا يحيا يشعر؟
أوغسطينس: مستحيل.
العقل: لا شكّ بأنّ النفس تحيا دومًا.
أوغسطينس: إنّك تغمر بالفرح بشكل سريع: هيًّا بنا، إن شئت، خطوة خطوة.
العقل: ومع ذلك، إن كان كلّ ما قبلت سابقًا صحيحًا فلست أظنّ أنّ الشكّ به ممكن.
أوغسطينس: أكرّر لك إنّك لذاهب بسرعة. أفضّل الاعتراف بأنّني سلمت، على طيش، ببعض أمور؛ ولا أعتبر أنّني في طمأنينة تامّة حول خلود النفس. توسّع في هذه النتيجة وبيِّن لي كيف تصل إليها.
العقل: لقد قلتَ بأنّ لا خطأ حيث لا حواسّ ويستحيل عدم وجود الخطأ، إذن فالشعور هو أبديّ. ولكن لا شعور

بلا نفس؛ فالنفس إذًا خالدة لأنّها لا تحسّ إن لم تكن حيّة. وهذا يعني أنّها تحيا إلى الأبد.

IV – أوغسطينس يتحفّظ في أمر البرهان السابق

٥ أوغسطينس: لك مديةٌ من رصاص! لك أن تخلص إلى القول إنّ الإنسان هو أيضًا خالد لا يموت لو أنّي وافقتك على قولك بأنّ الكون لا يكون بدون الإنسان، وأنّ هذا الكون خالد.

العقل: أنت متحفّظ جدًّا. إنّه لحسن أن نستنتج، كما فعلنا، أن لا وجود للطبيعة بدون النفس، إلّا إذا افترضنا أنّ الخطأ لن يكون في الطبيعة في يوم من الأيّام.

أوغسطينس: أقرّ وأعترف بصحّة ما تقول، إنّما أظنّ أنّه يجب التدقيق في ما إذا كانت المبادئ التي سلّمتُ لك بها سابقًا ثابتة لأنّنا، كما أرى، قد قمنا بخطوة كبيرة نحو خلود النفس.

العقل: هل وجدت، بدقّة، أنّك قد قبلت برأيي، عن خفّة؟

أوغسطينس: لا شكّ، ولكنّي لست أجد خفّة أو طيشًا أتّهم بهما نفسي.

العقل: فالبرهان إذًا، واضح بأنّ الطبيعة لا يمكن أن تكون بدون نفس حيّة.

أوغسطينس: أجل، إنّي أتحفّظ حول هذا الموضوع بأنّه يمكن للنفوس أن توجد مداورةً فيولد البعض منها ويموت البعض الآخر.

العقل: وإن حذفنا الخطأ من الطبيعة، ألا يمكن أن يكون كلّ

شيء صوابًا؟

أوغسطينس: إنّه لمنطقيّ!

العقل: أجبني: كيف تعرف أنّ هذا الحائط هو حقًّا حائط؟

أوغسطينس: لأنّ ظاهره لا يغشّني.

العقل: لأنّه، كما يبدو لك، يكون.

أوغسطينس: أجل.

العقل: إذًا، إن كان شيءٌ ما خطأً لأنّ ظاهره مخالفٌ لما هو، وكان صوابًا لأنّ ظاهره مطابقٌ لما هو، ثمّ ألغي مَن يراه فلن يبقى فيه لا خطأ ولا صواب. ولكن إن لم يكن الخطأ في الطبيعة فالكلّ صواب، علمًا بأنّ لا شيءَ يظهر صوابًا أو خطأ إلّا لنفس حيّة. فهذا يعني بالنتيجة أنّ النفس تستمرّ في الطبيعة إن لم نستطع إلغاء الخطأ وتبقى فيها أيضًا إن استطعنا إلغاءه[٢].

أوغسطينس: أراك تعطي قوّة لما استنتجناه سابقًا دون أن تنفعنا بشيء لأنّ الأنفس تولد وتموت – وذاك يقلقني كثيرًا – حتّى إذا لم تنقص في العالم فلا يعني أنّها خالدة: وحسبها أن تتعاقب.

٦ العقل: هل ترى أنّ كلّ ما هو جسديّ، أي كلّ محسوس، أهلٌ لأن يكون معقولًا؟

أوغسطينس: لا أظنّ.

العقل: والآن: هل تعتقد أنّ الله يستخدم الحواسّ لكي يدرك؟

أوغسطينس: لست أجرؤ على التأكيد لأنّها مغامرة؛ ولكن بقدر

(٢) إنّها لحجج يتمسّك بها أوغسطينس كثيرًا في عدد كبير من مؤلّفاته على مدى حياته.

ما يُسمح لي، أقول إنّ الله لا يستخدم أبدًا الحواسّ.
العقل: إذًا، فالنفس وحدها تشعر.
أوغسطينس: إستنتاج وقتيّ ومحتمل.
العقل: إليك هذا أيضًا: هل توافقني القول: إن لم يكن هذا حائطًا حقيقيًّا فليس بحائط؟
أوغسطينس: لا أسهل في هذا المجال من الموافقة.
العقل: ولا شيء يمكن أن يكون جسمًا، إن لم يكن حقيقيًّا؟
أوغسطينس: صحيح أيضًا.
العقل: إذًا، إن لم يكن أيّ شيء حقيقيًّا إلّا إذا ظهر كما هو، وإن لم يُرَ الشيء الجسديّ إلّا بواسطة الحواسّ، وإن كانت النفس وحدها تستطيع أن تشعر، وأخيرًا إن لم يكن جسد ما إلّا إذا كان جسدًا حقيقيًّا، فبالنتيجة ما من جسد إلّا إذا كانت النفس موجودة.
أوغسطينس: أنت تلحُّ عليّ بقوّة ولا أرى ما أواجهك به.

V – ما هو الحقيقيّ؟

٧ العقل: والآن، انتبه جيّدًا.
أوغسطينس: حاضر.
العقل: أليس هذا حجرًا؟ إنّه يكون حجرًا حقيقيًّا إن ظهر على ما هو عليه. وليس حجرًا إن لم يكن حقيقيًّا، أي إن لم يكن مرئيًّا إلّا بواسطة الحواسّ.
أوغسطينس: صحيح كلّيًّا.
العقل: إذًا، لا وجود للحجارة في أعماق الأرض، وبشكل عامّ حيث مَن لا يراها. وقد لا يكون هذا الحجر موجودًا إن

لم نكن نراه. ولن يكون من حجر عندما نغادر وحيث لن يكون أحد ليراه. وإن أغلقت جيّدًا خزنتك ووضعت فيها بترتيب أشياء كثيرة فلن يكون في داخلها شيء؛ زد على ذلك فالخشب في داخلها لم يعد خشبًا ما دام جسدًا ما ليس شفّافًا، فكلّ ما في داخله لا يقع تحت الحواسّ وحتمًا لا وجود له، لو كان موجودًا لكان حقيقيًّا ولكن ما من حقيقيّ إلّا ما يظهر على حقيقته، وما دامت تلك الأشياء المخبّأة غيرَ مرئيّة فهي غير حقيقيّة.

هل لك من جواب على ما قلت؟

أوغسطينس: إنّي لأرى أنّ ما توصّلت إليه من استنتاجات، يخرج عن المبادئ التي وافقتك عليها. وإنّها لمن الحماقة أن أنكر عليك أيًّا من تلك المبادئ من أن أوافقك على صحّتها.

العقل: لست أرفض ما تقول. أدرس جيّدًا ما تقول. هل تقبل أنّ الأجساد يمكن أن تكون مرئيّة بلا حواسّ، وأنّ شيئًا ما يشعر وليس بالنفس، وإنّ حجرًا ما أو أيّ شيء يكون دون أن يكون حقيقيًّا؟ أوَتظنّ أنّ تحديد الحقيقيّ يتغيّر؟

أوغسطينس: فلندرس إن شئت هذه النقطة الأخيرة.

٨ العقل: إذًا، حدّد الحقيقيّ.

أوغسطينس: الحقيقيّ هو الذي يظهر أمام الشخص العارف إذا أراد هذا الأخير واستطاع بأن يعرفه.

العقل: ألا يكون حقيقيًّا إلّا ما يستطيع الإنسان أن يعرفه؟ ومن ثمّ إن كان الخطأ هو ما يبدو في الظاهر مخالفًا لما هو

في الحقيقة، إذ ذاك هذا يرى الحجر حجرًا وآخر يراه خشبةً؛ ألا يكون الشيء ذاته في الوقت عينه خطأً وصوابًا؟

أوغسطينس: يربكني كثيرًا اعتراضك الأوّل: كيف يمكن لشيء غير معروف ألّا يكون حقيقيًا؟ أن يكون الشيء ذاته في الوقت عينه خطأً وصوابًا فهذا لا يقلقني: إنّي أرى أنّ شيئًا ما في الوقت عينه أكبر وأصغر إذا قارنّاه بأشياء متباينة. وهذا يأتي من أنّ الشيء، بحدّ ذاته، ليس «أكبر» أو «أصغر» لأنّها تعابير تتضمّن تشبيهًا معيّنًا.

العقل: أمّا إن أكّدت أن لا شيء حقيقيّ بذاته، ألا تخاف من ألّا يكون شيء بذاته؟ وما يجعل هذا الخشب خشبًا يجعله في الوقت عينه خشبًا حقيقيًا. من المستحيل أن يكون بحدّ ذاته خشبًا وبمعزل عمّن يعرفه ولا يكون خشبًا حقيقيًا.

أوغسطينس: إذًا، هاك ما أقول، وإليك التحديد الذي أعطيه ولا أخشى اللوم لكونه موجزًا جدًّا: برأيي، الحقيقيّ هو الموجود.

العقل: فليس إذًا من الخطأ ما دام كلّ موجودٍ حقًّا.

أوغسطينس: لقد أربكتني كثيرًا وليس لديَّ جواب، ومع أنّي أرغب في أن أتعلّم فقط من خلال أسئلتك فلا أزال أخاف منها.

VI - إنَّ ما يولِّد الخطأ هو ذاك التشابه مع الصواب وهو مبدأ لا يخلو من صعوبات

٩ العقل: إنّ الله الذي إليه نلجأ، يساعدنا، بلا شكّ، ويخلّصنا من تلك الصعوبات شرط أن نؤمن به وندعوه بحرارة.

أوغسطينس: لن أعمله بملء إرادتي أكثر من الآن، لأنّني لم أجد ذاتي غارقًا في ليل بمثل هذا العمق. أللَّهمَّ، يا أبانا، يا مَن تدعونا إلى أن نصلّي إليك وتَهبنا كلّ ما نسألك ما دامت حياتنا تتحسّن ونصبح أفضل مذ نتضرّع إليك: إستجبني أنا الذي أتخبّط في الظلمات؛ مدَّ إليَّ يديك، وهبني نورك، وردّني عن الضلال الذي أنا فيه، وقُدْ خطاي فأعود إليك وإلى ذاتي. آمين.

العقل: كن حاضر البال بقدر ما تستطيع وأصغِ إليَّ جيّدًا.

أوغسطينس: أرجوك أن تقول لي، هل راودتك فكرةٌ تقدر أن تمنعنا من أن نَهلك؟

العقل: إنتبه جيّدًا.

أوغسطينس: ها أنا بكلّيّتي معك.

١٠ العقل: أوّلًا، ما هو الخطأ؟ إنّها لمسألة يجب الرجوع إليها أكثر من مرّة.

أوغسطينس: إنّي لأعجب من أن يكون الخطأ مغايرًا لما يبدو عليه.

العقل: إنتبه! لنسأل أوّلًا الحواسّ. أكيدٌ أنّ ما تراه الأعين لا يسمّى خطأً إلّا إذا أبدى بعض الشبه مع الحقيقيّ. مثلًا إنّ الإنسان الذي نراه في الحلم، ليس إنسانًا حقيقيًّا لأنّه

يبدو حقيقيًّا ولهذا هو خطأ. مَن ذا الذي يستطيع، إذا رأى كلبًا في الحلم، أن يقول إنّه رأى إنسانًا؟ الكلب هو خطأ لأنّه يشبه كلبًا حقيقيًّا.

أوغسطينس: صحيح هو قولك.

العقل: أمّا إذا رأى الإنسان في يقظته حصانًا وظنّه إنسانًا ألا يخطئ حقًّا؟ شيء ما شبيه بالإنسان ظهر أمام ناظريه. إن لم يكن الإنسان يرى سوى المظهر الخارجيّ لحصان فلا يستطيع أن يدّعي بأنّه يرى إنسانًا.

أوغسطينس: إنّي موافق كلّيًّا.

العقل: نسمّي كذلك خطأً الشجرة المرسومة على لوحة زيتيّة، وخطأً الوجه في المرآة، وخطأً الحركة التي تبدو أنّ الأبراج تعملها أمام المسافر في مركب؛ وخطأً هي الكسرة التي تبدو على المجذاف الغائص في المياه؛ ولِمَ كلُّ ذلك؟ لأنّ لها مظاهر حقيقيّة.

أوغسطينس: أوافق.

العقل: وكذلك فإنّنا نخطئ حينما نخلط بين توائمٓ وبين بيض وطوابع لخاتم واحد إلخ...

أوغسطينس: أتابع بدقّةٍ ما تقول وأوافقك عليه.

العقل: وعلى هذا النحو فإنّ الشَبَه الذي يضرب الأعين هو في أساس الغلط.

أوغسطينس: لا أستطيع أن أنكره.

١١ العقل: لكنّ هذه المجموعة الغامضة من الأخطاء تنقسم، على ما يبدو لي، إلى فئتين: أخطاء تنتج عن أشياء متساوية، وأخرى عن أشياء مختلفةٍ قيمةً. نسمّيها متساوية عندما

نستطيع أن نقول إنّ الواحدة منها تشبه الأخرى: تلك هي حال التوائم أو طوابع الخاتم الواحد.

وتسمّى متباينة في قيمتها عندما تكون الواحدة، الأقلّ كمالًا، مشابهة لأخرى أكمل منها. ومَن ذا الذي يستطيع، إن نظر في مرآة، أن يقول إنّه يشبه الصورة التي يراها فيها، وليست هذه الصورة هي التي تشبهه؟

إنّ الفئة الثانية تحتوي على ما تستقبل النفس من تأثيرات، أو على ما يظهر من أحداث في الأشياء ذاتها. تأثيرات النفس صادرة إمّا عن الحواسّ، على مثال ما في برج السفينة من حركة وهميّة، وإمّا عن عملها في معطيات الحواسّ، كتخيّلات مَن يحلمون أو أيضًا عمَّن فقدوا العقل. الأخطاء الصادرة عمّا نراه في أشياء تأخذ تعبيرها وشكلها تارة من الطبيعة، وطورًا من فعل الكائنات الخاصّ. يصدر عن الطبيعة تماثلات متباينة من حيث القيمة، إمّا بواسطة الكائنات التي تخلقها، وإمّا من خلال الانعكاسات التي ترتّبها؛ الأولى هي حالة الأولاد الذين يولدون شبيهين بوالديهم؛ الثانية هي المرايا بجميع أشكالها لأنّها وإن كانت كلّها من صنع الإنسان، فليس الإنسان هو الذي يصنع الصور التي تعكسها. وفيما يختصّ بما تعمله الكائنات فإنّه يظهر في الرسوم والتصاوير الأخرى المماثلة؛ ويمكن أن تضاف إلى تلك الفئة ما يعمله الشياطين من تصاوير، هذا إذا وُجِدَت حقًّا. أمّا ظلال الأجساد فلا نغالي إن قلنا إنّها مماثلة لها وكأنّها أجساد

خياليّة. ومن المتّفق عليه، بدون صعوبة، القول بأنّها متعلّقة بما تقرّره الأعين وهي تصنّف مع فئة الأخطاء الصادرة عن الطبيعة من خلال الانعكاسات التي تدبّرها. لأنّ كلّ جسم يتعرّض للنور يعكسه ويلقي بظلّه على الجهة المعاكسة.

هل لك من اعتراض؟

أوغسطينس: أنا، كلّا! لكنّني أتحرّق شوقًا لكي أعرف أين تريد أن تصل من خلال ما تقول!

١٢ العقل: فضلًا عمّا تقدّم، علينا أن ننتظر بصبر، أن تشهد أيضًا سائر الحواسّ الأخرى أنّ الخطأ هو نوع من التشابه مع الحقيقيّ. فالسمع يعطينا عدّة حالات متشابهة: فحين نسمع صوت شخص، لا نراه، نتخيّله صوت إنسان آخر يشبهه. بين الأشياء المتشابهة صورًا والمتباينة قيمًا يمكننا أن نذكر الصدى أو طنين الآذان وفي الساعات تقليد لصوت الشحرور أو الغراب، أو ما يعطيه الناس الغارقون في أحلامهم أو المجانين. إنّ الأصوات الشاذّة تساعد، كما يقول الموسيقيّون، على الوصول إلى الحقيقة بشكل ممتاز؛ وهذا ما سوف نبيّنه لاحقًا؛ حسبنا الآن أن نلحظ أنّ تلك العلامات تقترب كثيرًا ممّا يسمّى «علامات صحيحة» ألا تتبعني جيّدًا؟

أوغسطينس: بسرور كبير أتبعك لكوني لا أجد صعوبة في أن أفهمك.

العقل: لهذا، لا يجوز أن نتباطأ. أتظنّ أنّ من السهل التمييز بين رائحة زنبقة ورائحة زنبقة أخرى؛ وفيما يختصّ بالطعم؛

هل يمكن التمييز بين طعم عسل مطيّب بالسعتر وطعم عسل مأخوذ عن قفير آخر؛ وهل يختلف باللمس ريش أوزّة عن ريش بجعة؟

أوغسطينس: كلاّ، لا أظنّ.

العقل: وفي أحلامنا نتصوّر أنّنا نشعر بتلك الأشياء ونتذوّقها ونتلمّسها، ألا نخدع إذ ذاك بالشبه القائم بين ما نتخيّله، وهو ناقص، لكونه غير حقيقيّ؟

أوغسطينس: صحّ.

العقل: هذه نقطة أصبحت مقبولة لأنّه يحدث أن ننخدع وننجرّ وراء شبَه معيّن حينما نستعمل جميع حواسّنا، سواء أكانت العناصر متساوية في قيمتها أم متباينة؛ حتّى ولو لم ننخدع إمّا لأنّنا لم نسلّم بما نراه أو لأنّنا وجدنا اختلافات فنسمّي أشياء مغلوطة تلك التي نجدها مشابهة للحقيقة.

أوغسطينس: لا أشكّ في ما تقوله.

VII –

١٣ العقل: إنتبه الآن! سوف نعود إلى الأفكار ذاتها ليكون برهاننا أشدُّ وضوحًا.

أوغسطينس: أنا حاضر، فقلْ ما تريد؛ قرّرتُ نهائيًّا أن أتحمّل تلك الرحلات الطويلة ولا أخشى ما فيها من عناء، وبي أملٌ في الوصول إلى الهدف الذي بِتُّ أشعر بأنّنا على مقربةٍ منه.

العقل: حسنًا تصنع؛ ولكن فكِّر: أتظنّ، ونحن نرى بيضًا على

جانب كبير من الشبه أنّنا نستطيع أن نقول إنّ بيضة من تلك المجموعة هي «مغشوشة»؟

أوغسطينس: لا أظنّ: إن كان الكلّ بيضًا، فهو بالتالي بيض حقيقيّ.

العقل: ولكن حين نرى صورة منعكسة على مرآة، فما هي الإشارات التي تدلّنا على الخداع البصريّ؟

أوغسطينس: بهذا، وهو أنّ الصورة لا تُمَسّ ولا تعطي صوتًا ولا تتحرّك تلقائيًّا ولا حياة فيها إلى ما هنالك من خصائص لا فائدة من ذكرها.

العقل: إنّي أرى أنّك لا تريد أن تضيّع وقتك؛ ولهذا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار فراغ صبرك، ولن أعود تاليًا إلى جميع الأمثلة المذكورة. ولو أنّ الأشخاص الذين نراهم في الحلم يستطيعون أن يعيشوا ويتكلّموا ويتلامسوا مع الذين هم في يقظة، وإن لم يكن فرقٌ بينهم وبين مَن نراهم، ونحدّثهم ونحن ساهرون، سليمو العقل، هل يحقّ لنا أن نقول عنهم إنّهم «خطأ»؟

أوغسطينس: كيف يحقّ لنا أن نقول عنهم ذلك؟

العقل: إن كانوا حقيقيّين لكونهم يظهرون مماثلين للحقيقة وحسب، دون فرق، وإن بسيطًا، بينهم وبين الناس الأصليّين، أو كانوا على عكس ذلك، لأنّ شيئًا واضحًا يكشف عن الاختلاف بينهم، فهذا يعني أنّ ما يسمّى شبَهًا هو أصل الحقيقة وما يُسمّى خلافًا أصل الخطأ أيضًا.

أوغسطينس: لست أعرف ما يجب أن أقول؛ وإنّي لأخجل من

قلّة الفطنة التي تعاطيت بها معك آنفًا[٣].

١٤ العقل: أنت على خطأ في توجيه اللوم إلى نفسك. ولقد اخترنا هذا النوع من الحديث لنوفّر عليك ذاك الشعور. وبما أنّه يدور بيننا وحدنا فإنّي أريد أن أسمّيه وأعطيه العنوان التالي: «حديث مع الذات» أو «حوار». إنّ اللفظة جديدة ولربّما غير مقبولة إنّما تعني حقًّا ما تقول. ما من سبيل، بحثًا عن الحقيقة، أفضل من استعمال الأسئلة والأجوبة؛ ومن ناحية أخرى، من النادر وجود محدّث لا يتألّم من هزيمة يشعر بها في نقاشه مع الآخر. قد يفسد العنادُ النقاش، بما يحمل إليه من مطالبات غير معقولة، إضافة إلى الجراح التي تضرب حبّ الذات وأحيانًا كثيرة تختفي ثمّ تعود فتظهر. وأظنّ أنّك، خدمةً للسلام وحفاظًا على التوافق، أردت البحث عن الحقّ، وبعون من الله فقد تقبّلت ما طرحت عليك من أسئلة وأجبت عنها. ولست أرى، تاليًا، لماذا تخاف، إن كنت ارتبطت بها عن قلّة فطنة، فالتراجع عنها والتخلّص منها هما الطريقة الوحيدة التي يجب أن تسلكها.

١٥ أوغسطينس: أنت على حقّ؛ ولكنّي لست أرى جيّدًا ما سلّمت به إليك عن خطإ؛ قد يكون قبولي بتسمية خطأً ما له بعض الشبه بالحقّ؛ ولا أرى شيئًا آخر يسمّى خطأً.

---

(٣) أوغسطينس يلوم نفسه في النقاش الذي دار بينه وبين العقل وكان فيه متسرّعًا وقد أظهر ذلك تلميذه إفوديوس Evodius ولامس فيه حدود الهزل.

وجوابًا على ذلك أراني مضطرًّا إلى الإقرار بأن ما يسمّى خطأً هو كلّ مخالف لما هو حقيقيّ. إنطلاقًا ممّا تقدّم نستنتج أنّ التباين بين اثنين يتسبّب بالخطأ. وذاك يقلقني لأنّ عقلي لا يقدّم لي شيئًا صادرًا عن أسباب متناقضة.

العقل: هل هو حدثٌ استثنائيّ في الطبيعة وفريد من نوعه؟ ألا تعرف أنّك تستطيع أن تستعرض الذرّيّات الحيوانيّة التي لا تُعدّ ولا تُحصى دون أن تجد ما يشبه حالة التمساح الذي، عندما يأكل، يحرّك الفكّ الأعلى(٤) على أنّ الإنسان يستطيع أن يجد في اثنين متشابهين جدًّا بعض الفرق.

أوغسطينس: أرى ذلك بوضوح. إنّما عندما أرى أنّ ما نسمّيه خطأً يحمل شبهًا بالحقّ وتباينًا معه، في الوقت عينه لا يسعني أن أتبيّن إن كان يسمّى خطأ بسبب التباين مع الحقّ والشبه به خطأ. وإن كان التباين يجعله خطأً فلن يبقى شيء يوصف هكذا، إذ لا شيء يختلف عن آخر يصرَّح عنه أنّه خطأ. وهكذا فإن افترضت أنّ الشبه هو الذي يجعلنا نسمّي شيئًا ما «خطأ» فلسنا نطالب فقط للبيض، الذي هو صحيح حقًّا، لأنّه متشابه ولن أخلص من أيدي مَن يريد أن يرغمني على الإقرار بأنّ الكلّ خطأ لأنّ جميع الأشياء، وهذا أمرٌ لا يستطاع إنكاره، متشابهة في ناحية من نواحيها. وحينما توحي إليَّ بالجرأة على أن أجيب أنّ التباين والتشابه يساهمان معًا

(٤) ملاحظة معروفة عند الأقدمين إنّما خاطئة.

في القول بأنّ هذا الشيء قد يسمّى خطأ، فأيّة وسيلة تقدّم لي للتنصّل من كلّ ذلك؟ ولن يبقى عليّ سوى الإسراع في القول، بأن كلّ ذلك خطأ هو، لأنّ كلّ الأشياء، كما سبق وقلت، من قليل، إنّها تتشابه في نواحٍ وتختلف في أخرى. وقد أقول أيضًا إنّ الخطأ هو ذاكَ الآخر الذي هو بخلاف ما يبدو؛ إنّما أخاف تلك الأشباح التي اعتقدت بأنّني نجوت منها؛ إذ إنّ إعصارًا مفاجئًا يلقيني من جديد في الجهة المضادّة للقول بأنّ الحقيقيّ هو الذي يظهر كما هو، وينتج عن ذلك أن لا شيء حقيقيّ إن لم يعترف به كائن ما على ما هو عليه. ولكنّني هنا أخشى أن أغرق على صخور مخفيّة في الأعماق وصحيحة؛ وإن لم تكن معروفة؛ وأخيرًا إن قلت إنّ الحقّ هو الذي يكون، نستنتج أنّ الخطأ غير موجود وهذا ما يثير اعتراضًا عامًّا.

وعلى هذا النحو يعود إلى الظهور كلّ ما كان يحيّرني، ولا أرى أنّ صبري على كلّ ما أرجأناه أوصلني إلى البعيد.

IX – ما هو الخطأ؟

١٦ العقل: إنتبه! لا أعتقد بأنّنا طلبنا عبثًا معونة الله. إنّما بعد أن جرّبنا كلّ المحاولات الفكريّة استبقينا لنا واحدة وهي أن نسمّي «خطأ» ما قدّم ذاته على غير ما هو أو بشكل عامّ ما يدّعي أن «يكون» دون أن «يكون» حقًّا.

النوع الأوّل من الخطأ ينقسم إلى «خداع»

Tromperie وإلى وهم أو تصوّر Fiction؛ يُحكَى عن الخداع عندما تنكشف الرغبة في الغشّ؛ وهذا يعني حتمًا نفسًا وينبثق تارة عن العقل (لدى الحيوانات العاقلة، الإنسان مثلًا) وطورًا عن الطبيعة (لدى الحيوانات، مثلًا الثعلب). أمّا الوهم فهو عمل المتكلّفين، المتصنّعين ويختلفون عن الكَذَبة بحيث إنّ خدّاعًا يريد أن يخدع، في حين يستطيع واحد أن يركّب وينظّم أوهامًا دون أن تكون له رغبة في أن يغشّ. وعلى هذا النحو فإنّ الممثّلين الإيمائيّين والهزليّين وعددًا من الشعراء، يكثرون من الأشياء الوهميّة بقصد إعجاب الناس دون خداعهم، حتّى إنّ معظم الذين يمزحون يلجأون إلى الأسلوب عينه؛ إنّما لنا الحقّ بأن نسمّي خدّاعًا أو ماكرًا مَن يعمل على أن يخدع الناس. أمّا الذين لا يريدون الغشّ إنّما يستعملون مظهرًا كاذبًا فلا أحد يتردّد في أن يسمّيهم مشوِّهين للحقيقة؛ وإن كانت التسمية قاسية فلا مانع من أن يُدعوا مختلقي أوهام.

١٧ أوغسطينس: تابع! أرجوك. يبدو أنّك تعطيني في الوقت الحاضر تعليمًا في الخطأ صحيحًا. إنّما أنتظر منك أن تعيِّن لي الفئة التي وصفتها بأنّها تدَّعي الوجود دون أن تكون حقًّا.

العقل: ألا تنتظر برهة؟ إنّها تلك التي أعطينا عنها سابقًا عدّة أمثلة: ألا تعني صورتك في المرآة أنّها أنت، أوليست أيضًا خطأً لأنّها ليست أنت؟

أوغسطينس: أجل، هذا صحيح.

العقل: ألا يتوق كلّ رسم وصورة وإنجاز فنّي إلى أن يبدو كالشيء عينه الذي صنع على مثاله؟

أوغسطينس: إنّي موافق بلا تحفّظ.

العقل: وهل توافق على أن تدخل الصور التي ينخدع بها النائمون والمرضى الذين يهذون في تلك الفئة التي تكلّمنا عنها؟

أوغسطينس: الأفضل أن تكون في تلك الفئة، إذ لا نجد مثيلات لها ترغب في الاندماج بالحقائق كالتي نراها في حال الوعي وفي تمام الصحّة العقليّة. وإذا كانت مغشوشة فهذا يعني أنّها لم تنجح في الوصول إلى ما تتوق إليه.

العقل: وهل يجب الرجوع إلى حركة الأبراج والمجذاف الذي يبدو منكسرًا في الماء وإلى ظلّ الأجسام؟ إنّها لظواهر يبدو لي أنّ العودة بها إلى القاعدة عينها تتمّ بسهولة.

أوغسطينس: من دون صعوبة.

العقل: أحتفظ بالصمت حول الحواسّ الأخرى. كلّ إنسان يجد، إذا فكّر قليلًا، أنّنا نسمّي خطأً في الأشياء التي تتأثّر بها حواسّنا، ما يزعم أنّه شيءٌ، وليس بشيء.

X – الخطأ والتصوّرات الأدبيّة

١٨ أوغسطينس: حسنًا تقول. إنّما أتساءل عمّا دفعك إلى أن تضع، خارجًا عن تلك الفئة، القصائد والأشياء الهزليّة وما سواها من الروايات الخياليّة[٥].

---

(٥) أوغسطينس ميّز في المقطع ١٦ بين الخدّاع، الذي يكذب ليخدع والكاذب الذي يجمع بين الأشياء الوهميّة، غير الصحيحة.

العقل: أن يقصد الإنسان الكذب شيء وألّا يستطيع أن يكون صادقًا شيء آخر. ولذلك يمكننا أن نضمَّ ما يقوم به الناس من روايات هزليّة ومأسويَّة Tragédies وإيمائيّة Mimes إلى ما يصنعه الرسّامون، ليكون شبيهًا به، كما لا يمكن أن تكون الرسوم التي يصنعها الشعراء الهزليّون عن الحياة اليوميّة للناس حقيقيّة. وهذا لا يعني أنّ تلك الصور تريد أن تكون مغشوشة بحدّ ذاتها، إنّما هي بحكم الضرورة وبقدر ما تتجاوب مع فذلكة الفنّان لن تكون حقيقيّة. تلك كانت حالة روسيوس Roscius الإراديّة على المسرح حين لعب دور هيكوب Hécube. كان، بطبيعته، إنسانًا حقيقيًّا، وصار بإرادته ممثّلًا مأسويًّا Tragédien حين لعب اختياريًّا دورًا معيّنًا؛ ولكنّه لم يكن حقًّا بريام Priam حين كان يمثّله. نصل من خلال ما تقدّم إلى نتيجة فريدة من نوعها لا شكّ فيها.

أوغسطينس: وما هي النتيجة؟

العقل: ها هي: كلّ هذه الأشياء هي في جزء منها صحيحة بقدر ما هي في الجزء الآخر مغلوطة؛ وإن ما يساهم في أن يجعلها حقيقيّة، يُظهر أيضًا كم هي من ناحية أخرى مغلوطة؛ ولهذا لا يستطيع أن تصل إلى ما تصبو إليه من الحقيقة إن خشيت أن تكون مغلوطة. كيف استطاع ذاك الممثّل، الذي سمّيته آنفًا، أن يمثّل دورًا مأساويًّا باسم هكتور دون أن يكون هكتور أو أندروماك أو هرقل كاذبًا، إلى ما هنالك من أدوار لا تحصى ولا تعدّ قام بها؟ كيف يمكن لرسم زيتيّ أن يكون حقيقيًّا إذا لم يكن الحصان

الذي يمثّله ذلك الرسم مغلوطًا؟ وكيف يمكن لصورة حقيقيّة لإنسان على مرآة أن تظهر إن لم يكن إنسانًا مغشوشًا؟ وعليه إن كان بعض الأشياء بحاجة إلى أن تكون كاذبة لتكون نوعًا ما حقيقيّة، فلماذا تخشى الخطأ إلى هذا الحدّ وتريد الحقيقة وكأنّها خير عظيم؟(٦)

أوغسطينس: لست أدري، وأعجب من ذلك كثيرًا؛ ولكن، قد لا أرى في هذه الأمثلة ما يستحقّ أن يكون مثالًا. وفي الواقع، لكي نكون حقيقيّين في ما يميّزنا كبشر، لا يجوز لنا، كالقصصيّين، أن نتكيّف ونتمثّل بالغريب، ونصبح على خطأ كالصورة التي تعكسها المرآة، أو على مثال بقرات ميرون النحاسيّة. ولكن علينا أن نبحث بجدّيّة عن تلك الحقيقة التي ليس لها وجهان مختلفان ومتناقضان: أحدهما حقيقيّ والآخر خطأ.

العقل: إنّ ما تسعى إليه وتطلبه لعظيمٌ وإلهيٌّ حقًّا. إن توصّلنا إلى وجوده ألا نرى فيه اكتمالًا وتحقيقًا للحقيقة التي يكفي أن يشير اسمها إلى كلّ ما يُدعى حقًّا أيًّا يكن الأسلوب المتّبع؟

أوغسطينس: أقبل به بطيبة خاطر.

XI - ما رأيك بعلم النحو والصرف؟ (قواعد اللغة)

١٩ العقل: ما رأيك بالجدليّة (الديالكتيك) أهي كذب أم حقّ؟

أوغسطينس: مَن ذا الذي يستطيع أن يشكّ بأنّها صحيحة؟

---

(٦) راجع الرقم ٧ حيث يحكى عن الخطأ والصواب في الفنون.

وقواعد اللغة أيضًا صحيحة.

العقل: لعلّها صحيحة كالجدليّة Dialectique.

أوغسطينس: لست أرى أصحّ من الصحيح.

العقل: إنّه، ولا شكّ، ما لا يتضمّن شيئًا خطأ، خليط كنتَ، منذ قليل، تنزعج من رؤيته في الأشياء التي لا يمكنها أن تكون حقيقيّة إن لم تكن كلّها خطأ. ألا تدري أنّ تلك الأمثال والأوهام الثابتة، متعلّقة بعلم النحو والصرف؟

أوغسطينس: أجل، أعرف ذلك؛ إنّما لا أرى أنّ علم النحو والصرف يجعلها كاذبة؛ إنّه يكتفي بتلقينها، كما هي عليه، لأنّ كلّ مثلٍ خبرٌ وهميّ يقدَّم للإفادة والاستماع. إنّ علم النحو والصرف هو العلم الذي يحفظ الكلمة الملفوظة ويضع لها القواعد. وعليه أن يلتقط كلّ مباني اللغة البشريّة والتقليد الأدبيّ، ويحفظها كما يحفظ الوهميّ فيها وغير الصحيح. ومن ثمّ فليس هو الذي يجعلها كاذبة بل يقدّم قاعدة صحيحة لتلك النصوص كما هي عليه.

العقل: عظيم! لست أفحص الآن تلك القواعد ومميّزاتها لأرى إن كانت صحيحة أم لا؛ إلّا أنّي أسألك فقط إن كانت قواعد اللغة والجدليّة تعلّمك لأن تجعلها هكذا؟

أوغسطينس: لست أنكر أنّ فنّ التحديد بلباقة، الذي استعملته للتمييز بين هذه العناصر المتنوّعة، متعلّق بالجدليّة (الديالكتيك).

٢٠ العقل: إنّ علم الصرف والنحو، إن كان حقيقيًّا، ألا يكون

هكذا بصفته قاعدة علميّة؟ لأنّ كلمة قاعدة Discipline المشتقّة من لفظة Discere باللغة اللاتينيّة أي تعلّم. ولا يمكن القول عن أحد إنّه يجهل ما تعلّمه وحفظه. ولا أحد يعرف الغلط. وكلّ أسلوبٍ صحيح.

أوغسطينس: لست أرى غضاضة في القبول بهذا البرهان الوجيز؛ إنّما أتخوّف من النتيجة القائلة بأنّ القاعدة حقيقيّة لأنّنا نتعلّمها ونحفظها، وأتردّد في قبولِها.

العقل: وهل كان المعلّم يعلّمنا كيلا نؤمن ونتعلّم ما يلقيه علينا من دروس؟

أوغسطينس: بل كان يشدّد علينا لنتعلّم.

العقل: وهل ألحّ علينا، يا ترى، ليجعلنا نصدّق بأنّ ديدال Didal كان حقًّا لصًّا؟

أوغسطينس: كلّا. ولكن حين يرى أنّنا لم نحفظ المثل عن ظهر قلبنا، كان يضع يدينا في حالة لا تمكّننا من أن نمسك بهما شيئًا(٧).

العقل: إذًا، أنت تنكر صحّة المثل لأنّه مثل، وأنّ ديدال اشتهر من خلاله؟

أوغسطينس: لست أنكر صحّة ذلك المثل.

العقل: ولست تنكر أنّك تعلّمت الصحيح حينما تعلّمت ذلك المثل المعروف. لو صحّ أنّ ديدال قد كان سارقًا، ولو أنّ الأولاد قبلوا القصّة وردّدوها كخبر وهميّ صرف، لكان ما حفظوه استنادًا إلى أنّ ما يردّدونه صحيح هو،

---

(٧) لقد احتفظ أوغسطينس بأسوأ الذكريات عن المدرسة (**اعترافات I، XI، ١٤**).

فنصل إذ ذاك إلى ما كنّا نعجب منه منذ قليل، وهو أنّ أسطورة السرقة الخاصّة بديدال لا يمكن أن تكون حقيقيّة إلّا إذا لم يكن ديدال سارقًا.

أوغسطينس: أفهم الآن، إنّما أنتظر الفائدة التي نستطيع أن نجنيها من كلّ ذلك.

العقل: وهل يمكن أن تكون إلّا لصحّة ما تفكّر فيه بأن أيّ علم كان لا يكون صحيحًا إلّا إذا علّم الحقيقة؟

أوغسطينس: وما هي العلاقة القائمة مع موضوع نقاشنا؟

العقل: ها هي: أريد منك أن تقول لي ما الذي يجعل علم الصرف والنحو علمًا لأنّ ما يجعله صحيحًا هو ما يجعله علمًا.

أوغسطينس: لست أعرف جوابًا عليك.

العقل: ألا ترى أنّه إن خلا علم الصرف والنحو من تعريفات، ولم يكن فيه تمييز بين الأجزاء والنوع، فلا يمكنه أن يكون علمًا بأيّ شكل من الأشكال؟

أوغسطينس: إنّي أفهم الآن ما تريد أن تقول. وفي الواقع لا يمكنني أن أتصوّر علمًا يخلو من تعريفات وتحديدات وبراهين، لأنّ الهدف الأساسيّ لكلّ علم يقوم على تحديد الطبيعة الخاصّة بكلّ عنصر، فيعطي كلّ واحد محلّه منعًا لاختلاط العناصر فيحافظ على الجوهر ويرفض قبول ما لا يتجانس معها.

العقل: وأيضًا كلّ ما يحقّ له أن يسمّى حقيقيًّا.

أوغسطينس: نتيجة منطقيّة!

٢١ العقل: قل لي الآن، ما هو العلم الذي يعلّم التحديد الصحيح

والتجزئة الصحيحة والتنظيم الصحيح؟

أوغسطينس: سبق أن قلت إنّها الجدليّة، الديالكتيك.

العقل: لقد اعتُبر علم الصرف والنحو علمًا صحيحًا لكونه قادرًا على تقديم البراهين التي دافعت عنها، منذ قليل، ضدّ كلّ انتقاد لما هو خطأ؛ على أنّ ما أقوله في علم الصرف والنحو، أقدر أن أقوله أيضًا في كلّ العلوم لأنّك لاحظت، بحقّ، أنّك لا تعرف علمًا يستغني عن التحديدات والتجزئات، ويحقّ له أن يحمل لقب علم. ولكن إذا كانت تلك العلوم هي حقيقيّة لكونها علومًا، فمَن ذا الذي يجرؤ أن ينكر أنّها، بالحقيقة عينها، علوم صحيحة؟

أوغسطينس: إنّي قد أوشكت أن أقبل بما تقدّمت به؛ ولكن هنالك شيء واحد يربكني، هو أنّنا نعتبر أيضًا، بين تلك العلوم، الجدليّة. وأعتقد أيضًا بأنّها هي الحقيقة بالأحرى التي تجعل ذلك الأسلوب الجدليّ صحيحًا.

العقل: ملاحظة ممتازة تكشف عن وعيٍ لدَيْك! ولكنّك لا تنكر، على ما أظنّ، أنّ الجدليّة هيٍ حقيقيّة لكونها علمًا.

أوغسطينس: بالعكس؛ ذاك يوقعني في إرباك، لأنّني لاحظت أنّها هي أيضًا علم؛ وهي لذلك حقيقيّة.

العقل: إذًا؛ أتظنّ أنّها استطاعت أن تستحقّ هذا اللقب لو لم تكن تستعمل، ككلّ شيء، التحديدات والتجزئات؟

أوغسطينس: لا أقوى على أن أقول عكس ما قلت.

العقل: ولكن إن كان ذاك هو واجبها الخاصّ، فهي بحدّ ذاتها حقيقيّة. ومَن ذا الذي يحقّ له أن يتعجّب من أنّ العلم

الذي به كلّ شيء صحيح، هو بحدّ ذاته ومن ذاته الحقيقة.

أوغسطينس: لا أرى ما يمنعني من القبول التامّ بما قلت.

XII - ما كان مرتبطًا بمصدره بشكل ثابت يزول حتمًا بزوال مصدره

٢٢ العقل: إنتبه للقليل الذي بقي أن أقوله لك.

أوغسطينس: قل جيّدًا ما عليك أن تقول، شرط أن تفهم وأتمكّن من أن أكشف، دون تحفّظ، عن موافقتي عليه.

العقل: نعرف أنّه من الممكن للإنسان أن يقول بمعنيين مختلفين أنّ شيئًا ما هو في آخر: إنّه في الآخر بشكل يمكن فصله عنه ووضعه في مكان آخر: مثلًا هذه قطعة من خشب في هذا المكان، الشمس هي في مشرقها. مثل آخر: شيء ما ملتصق بمصدره بحيث لا يمكن فصله عنه كشكل قطعة الخشب، والمظهر الذي يقع تحت حواسّنا؛ النور في الشمس مثل آخر، والحرارة في النار والعلم في النفس إلى ما هنالك من حالات متشابهة. ألست من هذا الرأي؟

أوغسطينس: إنّها لمبادئ أعرفها من زمن بعيد، ولقد درستها وحفظتها بعناية في السنوات الأولى من صباي[٨] وبما أنّك تسألني عنها فلا أقدر إلّا أن أقبل بها، دون الحاجة إلى التفكير فيها.

---

(٨) راجع **الاعترافات XVI, IV**.

العقل: إليك شيئًا آخر: ألا توافقني على أن ما لا يمكن فصله عن مصدره، لا يمكن أن يبقى عندما يزول المصدر عينه؟

أوغسطينس: يبدو لي أيضًا أنّ ذاك أمرٌ حتميّ؛ ولكن إن أمعنّا في الدرس نجد أنّه من الممكن، حتّى ولو بقي المصدر، أن تزول عنه صفة ملتصقة به. لون جسدنا يتغيّر تحت تأثير المرض أو السنّ دون أن يزول الجسد. وهذه حالة خاصّة بهذا المصدر دون أن تدخل في تكوينه.

وجود هذا الحائط مثلًا ليس مرتبطًا بلونه، حتّى إذا اسودّ أو ابيضّ مثلًا أو اتّخذ لونًا آخر، فلن يبطل أن يكون حائطًا حقيقيًّا. أمّا إذا فقدت النار حرارتها، فلن تعود نارًا، كما لا نستطيع أن نحتفظ للثلج باسمه إذا لم يكن أبيض.

XIII – النفس مسكن الحقيقة خالدة هي كما الحقيقة

٢٣ أمّا في ما يختصّ بالذي سألتنيه – لو كان ممكنًا أن يبقى في المصدر إذا زال المصدر – إن كان من سبيل للقبول أو بالحكم بأنّها طريقة مرفوضة – أقول إنّه مناقض للحقيقة أن ما لا وجود له إلّا في مصدر لا يستطيع أن يبقى حتّى ولو زال مصدره.

العقل: إذ ذاك ها نحن قد وجدنا ما كنّا نبحث عنه!

أوغسطينس: ماذا تقول؟

العقل: ما أنت تسمع!

أوغسطينس: ماذا؟ إنّه لواضح وثابت أنّ النفس خالدة؟

العقل: أجل، إن كان ما قبلت به صحيحًا فهذا ثابت وواضح؛ اللهمَّ، إلّا إذا صرّحت بأنّ النفس وإن ماتت لا تزال نفسًا.

أوغسطينس: ذاك ما لن أقوله أبدًا؛ أقول، لمجرّد أنّها تموت فالنفس لن تعود نفسًا ولن أتخلّى عن هذه الفكرة، إلى ما يؤكّده مشاهير الفلاسفة أنّ ما يعطي الحياة، وأنّى يظهر، لا يمكن أن يكون عرضة للموت. وحيث يدخل النور يكون النهار ويتنافى مع الظلمات بفضل تلك القوّة العظمى التي تتمتّع بها المضادّات[٩]. ومع ذلك فالنور ينطفئ؛ ويقع في الظلمة المكان الذي كان ينيره. كان النور يقاوم العتمات ويرفض الاندماج فيها، ولكن حين يبطل أن يكون، يُفسح في المجال أمام الظلمة كما لو أنّه ابتعد. ولهذا فإنّي أخاف من أن يكون الموت بالنسبة إلى الجسد، كالظلمة بالنسبة إلى المكان، فتموت النفس حين تبتعد عن الجسد كما النور عن المكان. إذ ذاك لن يكون لنا الأمان والطمأنينة أيًّا يكن موتنا الطبيعيّ. ومن الضروريّ أن يتمنّى الإنسان نوعًا من الموت تخرج النفس فيه من الجسد سليمة، مصانة، إلى مكانٍ، هذا إن وُجِدَ، لن تعرف فيه الانطفاء أو الفناء، حتّى إذا لم يكن هذا ممكنًا وكانت النفس شبيهة بنور ينير في الجسد ويبطل أن يبقى خارجًا عنه، وكان كلّ موت أشبه بانطفاء النفس أو الحياة في هذا الجسد، إذ ذاك علينا أن نختار نوعًا من حياة، حيث الوجود

---

(٩) راجع أرسطو: **ميتافيزيقا III, IV**.

الذي أُعطيناه يمرّ في طمأنينة هادئة بقدر ما يسمح به الوجود البشريّ. على أنّي أجهل، فضلًا عن ذلك، كيف يمكن هذا أن يكون إذا وجب على النفس أن تموت. يا ما أسعد أولئك الذين يتوصّلون إلى الاقتناع بألّا يخافوا الموت حتّى ولو كان على النفس أن تزول! أمّا أنا، المسكين، فما من فكرٍ وما من كتاب استطاع حتّى الآن أن يقنعني بأنّ النفس تزول.

٢٤ العقل: توقّف عن البكاء؛ النفس البشريّة خالدة!

أوغسطينس: كيف تبرهن عن ذلك؟

العقل: بالمبادئ التي أعطيتنيها آنفًا، وعلى ما يبدو لي، دون تحفّظ يذكر.

أوغسطينس: لست أذكر أنّني أجبت عن أسئلتك بخفّة. إنّما أرجوك أن توجز لي كلّ ما سبق وقلت، فنرى إلى أين وصلنا من خلال تلك الدورات الطويلة، متمنّيًا عليك ألّا تطرح عليَّ أسئلة أن سردتُ بإيجاز المبادئ التي سلّمت بها إليك؛ ولِمَ الحاجة إلى أسئلة جديدة؟ أمن أجل إرجاء سعادتي، دون جدوى، وقد وصلنا إلى نتيجة حسنة؟

العقل: سأعمل ما أظنّ أنّك تريده؛ انتبه جيّدًا.

أوغسطينس: هيّا، تكلّم! أنا هنا، ولِمَ تميتني على هذا النحو؟

العقل: إن بقيت جميع صفات الشخص مستمرّة فالشخص أيضًا باقٍ يستمرّ؛ والحال إن كان علم قائم في النفس، إذًا يجب على النفس أن تبقى دائمة إن كان العلم ذاته باقيًا باستمرار. ولكنّ العلم حقيقة والحقيقة باقية إلى الأبد

كما بيّنها لنا العقل في بداية هذا الكتاب. إذًا النفس باقية إلى الأبد، ونفسٌ «ميتة» لا تعني شيئًا. قد يستطيع واحد أن يشكّك، عن حقّ، في خلود النفس، إذا برهن أنّ بين المبادئ التي رسمناها آنفًا، قد أخطأنا في قبول واحدٍ منها فقط.

XIV – ولم هذا الدوران إن كان هذا البرهان كافيًا؟

٢٥ أوغسطينس: دعني أفرح وأبتهج؛ ولكن ملاحظتان تسترعيان انتباهي قليلًا.

إنّ ما يقلقني، في بداية الأمر، هو أنّنا احتجنا إلى دورة طويلة سرنا فيها وفكّرنا طويلًا، في حين أنّ المشكلة لم تكن بحاجة إلى ذلك كلّه. وحسبُنا بضع كلمات لحلّها كما فعلت. يزعجني الدوران الذي اتّخذه النقاش وكأنّ المقصود إيقاعنا في شرك معيّن.

لست أرى، تاليًا، كيف يقال إنّ العلم هو دومًا في النفس وبخاصّة الجدليّة التي يعرفها عدد قليل من الناس، حتّى إنّ مَن عرفها نسيها طويلًا منذ طفولته. إنّنا لا نستطيع أن نقول إنّ نفوس الجهّال ليست بنفوس، أو إن لهم في نفوسهم علمًا يجهلونه.

إن كان في الأمر جهل ظاهر، وجب ألّا تكون الحقيقة دومًا في النفس، أو ألّا يكون ذلك العلم حقيقة.

العقل: ترى جيّدًا أنّ تلك الدورات التي قطعناها في تفكيرنا كانت ضروريّة. وفي الواقع لقد كنّا نبحث عمّا هي

الحقيقة، والآن أيضًا، وبعد أن تهنا في مجازات كثيرة، وسط واقع غامض جدًّا، ما استطعنا أن نكشفها. إذًا، ما العمل؟ هل نتراجع وننتظر كتبًا وضعها الآخرون أو نتسقّط برهانًا يساعدنا على حلّ المشكلة؟ صحيح أنّ مؤلَّفات عدّة وُضِعت قبل عصرنا ولم نقرأها؛ وفي أيّامنا هذه ولئلّا ننغلق على بعض افتراضات، نعرف جيّدًا أنّ تلك المواضيع قد درسها نثرًا وشعرًا أناس نقدر أن نطّلع على كتاباتهم، يمكّننا نبوغهم من الحلّ المنشود. ألسنا نرى ذاك الرجل العظيم الذي أحيا الفصاحة بكمالها والتي نبكيها؟[١٠] فبعد أن علّمنا في كتاباته كيف نحيا هل يتركنا نعيش في جهل لطبيعة الحياة؟

أوغسطينس: لا أظنّ؛ وأرجو منه الكثير. شيء واحد يؤلمني هو أنّنا عاجزون عن التعبير عن محبّتنا له وللحقيقة كما نريد. سوف يشفق ولا شكّ على عطشنا إلى الحقيقة ويرويه بأسرع ممّا نعتقد. إنّه لمطمئنّ لكونه مقتنعًا كلّ الاقتناع بخلود النفس، ولا يعرف أنّ أناسًا عرفوا شقاء جهلهم، ولن يقسو عليهم بالامتناع عن إغاثتهم ولا سيّما إذا سألوه ذلك. وهنالك شخص آخر[١١] استطاع، بفضل ما بيننا من صداقة متينة، أن يخبر حماسنا إنّما هو بعيد عنّا ولسنا حاليًّا مؤهّلين لأن نتّصل به بسهولة حتّى عن طريق الكتابة. إنّي أعتقد أنّ الوقت

---

(١٠) هنا يشير أوغسطينس إلى القدّيس أمبروسيوس، أسقف ميلانو.
(١١) من غير المعروف بالضبط إلى أيّ إنسان يشير هنا أوغسطينس.

الحرّ الذي يعيشه ما وراء جبال الألب جعله ينهي قصيدته، مطاردًا الخوف من الموت، وذاك الجمود القاتل والبرد القارس الذي تجمّدت فيه النفس منذ زمن طويل! وبينما ننتظر العون، الذي ينقصنا حتّى الآن، أليس من العار علينا أن نضيع، على هذا النحو، وقتنا وندع نفسنا معلّقة وأسيرة إرادة صالحة لسنا واثقين منها؟

XV - الحقيقة تثبت إلى الأبد

٢٧ أما دعونا الله، وما زلنا ندعوه، لا لكي يعطينا الثروات والملذّات الحسّيّة والمقامات الرفيعة والأمجاد الشعبيّة، بل لكي يوجّهنا بحثًا عن طبيعتنا وعن الطبيعة الإلهيّة؟ هل يريد أن يتخلّى عنّا، أم نحن، عنه سنتخلّى؟

العقل: كلّا، ليس من شأنه أبدًا أن يتخلّى عمَّن يعيشون تلك الأماني؛ وعلينا نحن أيضًا ألّا نفكّر في التخلّي عن مثل ذلك الدليل.

فلنذكر إذًا، بكلمات وجيزة، إن حسن لديك، كيف توصّلنا إلى الاقتراحين التاليين: «الحقيقة تثبت إلى الأبد» و«الجدليّة هي الحقيقة». وفي الواقع لقد أعلنت أنّ الشكّ بصحّة تلك المبادئ يجعلنا نشكّ تقريبًا بكلّ ما توفّر لدينا من براهين. وهل تفضّل البحث أوّلًا في إمكانيّة وجود المعرفة في نفس جاهلة تجب تسميتها نفسًا؟ لقد ظهر عليك القلق حول هذه النقطة، حتّى

شعرت بأنّك مضطرٌّ إلى الشكّ بكلّ ما قبلت به آنفًا.

أوغسطينس: فلنبدأ بمناقشة الصعوبات الأولى؛ أمّا الأخيرة فسوف نرى ما يكون من أمرها. ويبدو لي إذ ذاك أنّه لن يبقى موضوع للنزاع.

العقل: فليكن؛ ولكن انتبه جيّدًا وكن على حذر، لأنّي أعرف ما يحدث لك حين تكون منتبهًا، إذ تتوق بكلّيّتك إلى النتيجة وإلى أن تراها واضحة بأسرع ما يكون فتقبل، بما يُطلَب منك دون فحصٍ كاف.

أوغسطينس: قد تكون على حقّ في ما تقول؛ ولكنّي سأدفع بكلّ قواي ضدّ هذه النقيصة. إذًا، ابدأ هذا الامتحان ولن نتوقّف على ملاحظات لا فائدة منها.

٢٨ العقل: إليك الأسلوب الذي برهنّا فيه، على ما أذكر، عن أنّ الحقيقة لا تزول: لقد قلنا لو أنّ العالم بأسره والحقيقة ذاتها على زوال فحقًّا يكون العالم والحقيقة قد زالا. على أنّه ليس من حقّ بلا حقيقة. إذًا، لا يمكن للحقيقة أن تزول.

أوغسطينس: أقِرُّ بما تُقَدِّم وتقترح، وأعجب من أن يكون اقتراحك غلطًا.

العقل: لننتقل الآن إلى نقطة ثانية.

أوغسطينس: دعني أفكّر برهة من الزمن، فأوفّر على نفسي خجل التراجع.

العقل: ألا يصحّ أن تزول الحقيقة؟ إن لم يكن صحيحًا فهذا يعني أنّها باقية. وإن كان هذا صحيحًا فكيف له بعد زوالها أن يكون صحيحًا ما دام لن يكون لها وجود؟

أوغسطينس: لست بحاجة إلى أن أفكّر بهذا الأمر وقتًا أطول. لننتقل إلى موضوع آخر؛ سوف أتدبّر أمري، إن أمكن، فيطّلع خبراء ذوو كفاءة على هذه المناقشات ليصلحوا ما فيها من عيوب، إن وُجِدت، لأنّي، في ما يختصّ بي، لست أرى الآن قطّ ولا فيما بعد، قولًا معاكسًا لها.

ما هو الخطأ والصواب

٢٩ العقل: أليست الحقيقة هي التي تجعل حقًّا كلّ ما هو حقّ؟

أوغسطينس: صحيح؛ ولا شيء آخر.

العقل: هل من شيء يدعى حقًّا خارجًا عمّا ليس خطأً؟

أوغسطينس: التردّد حول هذا الموضوع يعني جنونًا.

العقل: أليس الخطأ يعطي الشبه بشيء آخر دون أن يكون الشيء الذي يشبهه؟

أوغسطينس: لست أرى ما يستحقّ أكثر منه، اسم خطأ، ويسمّى أيضًا خطأ ذاك الذي أبعد ما يكون عن الصواب.

العقل: ومَن ينكر ذلك؟ إنّما يجب أن يتضمّن بعض الشبه للصواب.

أوغسطينس: كيف يكون ذلك؟ عندما يقال أنّ ميده Médée قد طار في الجوّ في مجموعة من الحيّات فهذه الصورة الوهميّة ليست على شيء من الحقيقة وليست واقعيّة؛ وما لا وجود له البتّة لا يستطيع أن يكون شيئًا آخر.

العقل: لقد أحسنت في ما تقول؛ إنّما لست تنتبه إلى أن ما لا وجود له البتّة لا يقال عنه إنّه «خطأ». إن كان «خطأ»

فهو موجود، وأمّا إن لم يكن موجودًا فلا يمكن أن يكون خطأ.

أوغسطينس: إذ ذاك، لما حُقَّ لنا أن نقول عن تلك المعجزة المزعومة المنسوبة إلى ميده Médée بأنّها خطأ؟

العقل: إن لم تكن فكيف هي معجزة؟

أوغسطينس: إنّه لشيء مذهل! وهكذا فعندما أسمع البيت الشعريّ التالي:

حيّاتٌ كبيرةٌ ذات أجنحة معلّقة في وجهي[١٢]

ألا يحقّ لي أن أقول إنّ هذا خطأ؟

العقل: بكلّ تأكيد هناك شيء يحقّ لك أن تسمّيه خطأ.

أوغسطينس: بحقّك، قل لي، ما هو؟

العقل: ما جاء في هذا البيت من الشعر.

أوغسطينس: ولكن بأيّ شيء يحاكي الحقيقيّ؟

العقل: القول ذاك يحاكي الحقيقيّ لأنّه صيغ كما يصاغ الحقيقيّ حتّى ولو أنّ ميده Médée قام بذلك العمل العظيم، لأنّ جملة مغلوطة تقلّد جملة صحيحة تشبه الصحيحة حتّى ولو لم نعتقد بها، فتعبيرها مشابه لتعبير الجملة الصحيحة: إنّها مغلوطة دون أن تحمل الغشّ وإذا ما صدّقناها تكون حاذية حذو الجملة الحقيقيّة.

أوغسطينس: أدرك الآن الفرق الكائن بين ما نقول وما نحكي عنه. وإنّي لموافق. أليس من حقّنا أن نهزأ بمَن يقول عن حجر إنّه فضّة مغشوشة؟ ومع ذلك فإن قال أحدهم

(١٢) يبدو أنّ أوغسطينس أخذ القول عن شيشرون في كتاب *De inventione I* ٢٧، يشير إلى الفرق بين الأسطورة والتاريخ الذي يحكي أحداث الماضي.

إنّ الحجر هو من فضّة نؤكّد أنّه يقول شيئًا غلطًا ويتلفّظ بجملة مغلوطة، بيد أن نقول عن القصدير والرصاص إنّهما فضّة مغشوشة فهو شيء ليس بالمستغرب، لأنّهما معدنان يشبهان نوعًا ما الفضّة. الخطأ في هذه الحال ليس ما نقول، بل في الموضوع الذي يتناوله كلامنا.

XVI –

٣٠ العقل: لقد أدركت الشيء جيّدًا. ولكن، هل يمكننا أن نطبّق، بلباقة أيضًا، على الفضّة اسم رصاص مغشوش؟

أوغسطينس: لا أعتقد.

العقل: إذًا، لماذا؟

أوغسطينس: لست أدري؛ ولكنّي بطريقة عفويّة أكره كثيرًا ذلك الأسلوب الكلاميّ.

العقل: ألأنّ الفضّة أغلى فيُحَطُّ من قيمتها بينما يتشرّف الرصاص نوعًا ما إذا سمّي فضّة مغشوشة؟

أوغسطينس: ها إنّك تشرح بطريقة مثاليّة ما أنا شاعر به. ولهذا فإنّ القانون يعتبر الرجال الذين يرتدون ثياب النساء سفلة ولا يحقّ لهم أن يكونوا شهودًا. ولست أدري إن وجب أن أسمّيهم رجالًا كذبة أم نساءً كذبة. على كلّ حال يمكننا أن نسمّيهم، بلا تردّد، ممثّلين فاشلين وسفلة حقيقيّين. وإن ظلّوا في الخفاء وما استطعنا أن نسمّي سافلًا إلّا مَن ذمّه الرأي العامّ، أعتقد بأنّنا نبقى على حقّ إن سمّيناهم أشرارًا.

العقل: سوف نجد المناسبة لمناقشة هذه المسألة. أشياء كثيرة

تصير وتظهر خارجيًّا مخجلة إنّما يمكن الشهادة بأنّها حسنة استنادًا إلى نيّة شريفة لدى فاعليها. إنّه لسؤال هامّ أن يعرف الإنسان إذا كان، حبًّا بتحرير وطنه، يستطيع أن يرتدي ثياب امرأة ليخدع العدوّ فيظهر بمظهر امرأة وهو في الحقيقة رجل؟ أو كان على العاقل الواثق من أنّ حياته ضروريّة لخير البشريّة أن يُؤثر الموت بردًا على أن يرتدي ثياب امرأة إن لم يتوفّر له سواها؟

ولكن كما سبق وقلت، إنّها لأسئلة سنعود إليها لأنّك ترى بكلّ تأكيد أيّ عمق تتطلّب ومدى الدفع بها إن أبينا الوقوع في أخطاء معيبة لا عذر لنا فيها.

أمّا السؤال الذي يشغلنا في الوقت الحاضر، فأظنّ أنّنا قد أوضحناه كفاية، ولا يمكن الشكّ بأن ليس من خطأ إلّا وفيه بعض المحاكاة للصواب.

XVII- هل من شيء حقّ أو خطأ من جميع نواحيه؟

٣١ أوغسطينس: أنتقل إلى سوى ذلك لأنّي مقتنع كلّيًّا.

العقل: إليك ما أبحث عنه: خارجًا عن العلوم التي نتلقّنها، ومن بينها الحكمة، هل نستطيع أن نجد علمًا صحيحًا بدون أن يكون على مثال أخيل المسرح، خطأ من ناحية ليكون حقيقيًّا من ناحية أخرى؟

أوغسطينس: يبدو لي أنّ أشياء كثيرة على تلك الحال. هذا الحجر هو خارج العلوم التي تتحدّث عنها! ومع ذلك ولكي يكون حجرًا حقيقيًّا ليس بحاجة إلى أن يحاكي شيئًا لنستطيع أن نقول عنه إنّه خطأ. إنّ هذا المثل

الوحيد يعفيني من ذكر أمثلة أخرى كثيرة تبادر عفوًا إلى ذهني.

العقل: صحيح، ولكن ألا ترى أنّها تدخل في فئة الأجسام؟

أوغسطينس: لربّما لو كنت متأكّدًا من أنّ الفراغ لا شيء على الإطلاق، أو اعتقدت بأنّ النفس ذاتها محسوبة فلست أراها حقيقيّة أوّلًا بمحاكاتها لأيّ شيء آخر.

العقل: تدفع بنا في نقاشات طويلة، وأنا أريد أن أوجز ما استطعت إلى ذلك سبيلًا. إنّ ما تسمّيه فراغًا يختلف بكلّ تأكيد عمّا تسمّيه الحقيقة.

أوغسطينس: إنّه لمختلف كلّيًا؛ وهل من شيء أكثر «فراغًا» منّي لو كنت أعتبر الحقيقة شيئًا ما فارغًا وأتوق بهذا الحماس إلى ذلك الفراغ؟ وفي الواقع، ما الذي أتوق إلى وجوده إن لم تكن الحقيقة؟

العقل: لربّما توافقني على أن لا حقّ إلّا ما تجعله الحقيقة حقًّا؟

أوغسطينس: هذا ما قد بدا لنا واضحًا.

العقل: هل تشكّ بأنّه ما من فراغ سوى الفراغ، وأنّ كلّ شيء هو بالتأكيد جسد؟

أوغسطينس: لا أشكّ بذلك.

العقل: من خلال كلامك أستنتج أنّ الحقيقة جسد؟

أوغسطينس: كلّا.

العقل: ماذا تجد في الجسد؟

أوغسطينس: لست أدري؛ وهذا لا يجدي الموضوع نفعًا؛ إنّي أفترض بأنّك تعرف أنّه لو وُجد الفراغ لكان أكبر حيث لا وجود للجسد.

العقل: واضح.

أوغسطينس: ولماذا التأخّر على الموضوع؟

العقل: هل يبدو لك أنّ الحقيقة هي التي خلقت الفراغ؟ وهل تعتقد أنّه من الممكن وجود فراغٍ ما، حيث لا وجود للحقيقة؟

أوغسطينس: كلّا لا أظنّ.

العقل: إذًا الفراغ ليس صحيحًا، لأنّه لا يمكن أن يولد من شيء ليس فراغًا؛ وأنّ ما تنقصه الحقيقة ليس حقًّا؛ وما يسمّى فراغًا يسمّى هكذا لأنّه ليس بشيء. وعليه فكيف يمكن أن يكون حقًّا ما لا وجود له، أو كيف يكون ما لا حقيقة له البتّة؟

أوغسطينس: لنَدَعْ هنا الفراغ كموضوع فارغ أيضًا!

XVIII – ماذا تفرض أبديّة الحقيقة؟

٣٢ العقل: ما رأيك بسائر الكائنات؟

أوغسطينس: ماذا تقول؟

العقل: إنّي أتكلّم عن مسألة، كما ترى، ملائمة جدًّا لرأيي: يبقى عليّ أن أتكلّم عن النفس والله. إن كان هذان الكائنان حقيقيّين لأنّ الحقيقة فيهما، فالخلود الإلهيّ لم يعد في أعين الناس مشكلة. وعلى هذا النحو أيضًا، فالنفس خالدة إن كانت الحقيقة الخالدة هي أيضًا فيها.

إذًا لندرس هذه المسألة الأخيرة: أليس الجسد حقيقيًّا، أي أليست الحقيقة فيه وبشكل صورةٍ للحقيقة ليس أكثر؟ إن وجدنا في الجسد المدعوّ إلى الموت

قدرًا من الحقيقة يوازي ما في العلوم، فلن تعود الجدليّة تلك الحقيقة التي تجعل سائر العلوم حقيقيّة، لأنّها لن تبدو أنّها قد كوّنت هذا الجسد الذي هو حقّ. ولكن إن لم يكن الجسد حقيقيًّا إلّا عن طريق المحاكاة، وليس من ثمّ ذلك الحقّ الصافي، فما من شكّ أبدًا يمنع في أن تكون الجدليّةُ الحقيقةَ ذاتها.

أوغسطينس: لنرَ إذًا في الوقت الحاضر، ما هو الجسد حتّى لو ثبتت لنا هذه النقطة، فلست أرى نهاية لنقاشنا.

العقل: كيف تقدر أن تعرف إرادة الله. إذًا، عليك أن تنتبه! أرى شخصيًّا أنّ الجسد موجود في شكل معيّن، في صورة لا وجود له بدونها؛ ولو أنّ هذه الصورة حقيقيّة لكانت هي نفس. فهل تخالفني الرأي؟

أوغسطينس: أقبل بجزء ممّا تقول؛ أمّا بالباقي فإنّي لمرتاب. إنّي أوافق على القول بأنّ الجسد لا يكون إلّا قائمًا في صورة ما. أمّا إذا كانت له صورة حقيقيّة كان نفسًا فهذا ما لا أفهمه جيّدًا.

العقل: ألا تعود تذكر شيئًا ممّا جاء في بداية الكتاب الأوّل، ومن علم الهندسة؟

أوغسطينس: لك الحقّ بأن تذكّرني به؛ وهو حاضر أمامي، وأجد لذّة في العودة إليه.

العقل: هل في الأجساد أشكال كتلك التي يصفها العلم؟

أوغسطينس: كلّا! لا يصدّق إلى أيّ حدٍّ هي ناقصة.

العقل: وأيّ شكل منها تعتبره حقيقيًّا؟

أوغسطينس: لا تتصوّر أنّه من المفيد أن تطرح عليّ سؤالًا كهذا.

مَن ذا الذي يدفعه العمى العقليّ فلا يرى أنّ الأشكال الهندسيّة هي في الحقيقة، وأنّ الحقيقة فيها بينما الأشكال الواقعيّة ولأنّها تبدو ميّالة إلى الأشكال الهندسيّة ومحاكية للحقّ، فهي مغلوطة؟ الآن أفهم كلّ ما كنت تحاول أن تبيّنه لي.

XIX - خلود النفس والأشكال الهندسيّة

٣٣ العقل: إذًا، أيّة حاجة بنا إلى علم الجدليّة! أن تكون الأشكال الهندسيّة في الحقيقة أو أن تكون الحقيقة فيها، فما من شكّ بأنّ نفسنا أي عقلنا يحتويها. وتاليًا فإنّ نفسنا تحتوي الحقيقة بجلاء؛ إن كان كلّ علم هو في نفسنا، كما في شخص لا ينفصل عنه، ولا يمكن للحقيقة أن تزول، فكيف بنا نستمرّ في شكّ حول الحياة الخالدة للنفس، وهو يوحي به إلينا نوع من الألفة مع الموت؟ هل للخطّ وللمربّع وللدائرة أن تحاكي شيئًا آخر لتكون حقيقيّة؟

أوغسطينس: ذاك ما لا أقوى على التفكير فيه، إذ من الضروريّ الاعتقاد بأنّ الخطّ ليس طولًا بلا عرض والدائرة ليست خطًّا منحنيًا (مقوّسًا) تتساوى جميع نقاطه في البعد عن الوسط.

العقل: ولِمَ التباطؤ إذًا؟ حيثما اجتمعت هذه الأمور الواضحة، ألا تكون الحقيقة هي أيضًا فيها؟

أوغسطينس: حمانا الله من الجنون كيلا نتنازع حول هذا الموضوع.

العقل: أَوَلَيس العلم أيضًا في النفس؟
أوغسطينس: مَن ذا الذي يجرؤ على القبول به؟
العقل: ولكن، عندما يزول الشخص، أيستمرّ ما هو فيه؟
أوغسطينس: مَن ذا الذي يجرؤ على إقناعي به؟
العقل: يبقى الافتراض بأنّ الحقيقة قد تزول؟
أوغسطينس: ما هو السبيل إلى ذلك؟
العقل: إذًا، فالنفس خالدة! كن واثقًا الآن بما قدّمت من براهين؛ كن واثقًا بالحقيقة؛ هي تصرخ بأنّها تُقيم فيك وأنّها خالدة، وأيًّا يكن الموت الطبيعيّ فلا يقوى على انتزاعها من مسكنها. إبتعد إذًا على ما ليس سوى ظلٍّ لك، وادخل في ذاتك فلن يعود لك موت تخشاه إلّا عندما تنسى بأنّك لا تستطيع أن تموت.
أوغسطينس: أسمع؛ أدخل في ذاتي وأبدأ أعرفها. ولكن، أرجوك، وضّح لي ما تبقّى من صعوبات عليّ. كيف لنا في نفس جاهلة - لا يحقّ لنا أن نقول في نفس تموت - أن نتصوّر أنّ العلم والحقيقة يقيمان؟
العقل: إنّه لسؤال مختلف يتطلّب درسه جيّدًا، مجلّدًا آخر؛ إنّما الأفضل بالنسبة إليك أن تعود إلى نقاط أوضحناها، قدر ما استطعنا، حتّى إذا لم يبقَ لديك أيُّ شكّ في المبادئ التي اتّفقنا عليها، نكون قد قمنا بعمل جيّد، على ما أظنّ، فنستفيد من طمأنينة واقعيّة في أبحاثنا المقبلة.

XX - الفرق بين الفكرة والصورة

٣٤ أوغسطينس: صحيح هو قولك، وها إنّي أقبل حرًّا برأيك.

ولكن قبل أن أنهي هذا الكتاب، أرجوك أن تشرح لي بكلمات، الفرق بين الشكل الصحيح كما هو في العقل والذي تخرج به المخيّلة - الوهميّ أو «الفانتسما» Fantasma على حدّ قول الإغريق.

العقل: إنّ ما تبحث عنه يستلزم صفاءً عاليًا جدًّا لكي تراه ولست مؤهّلًا لذلك حتّى الآن. إنّ الدوران الطويل الذي قطعناه، كان يهدف إلى تمرين عقلك ليصبح أهلًا لذلك الصفاء(١٣) بيد أنّ الفرق الذي تتكلّم عنه، هو أساسيّ ويقدر، على ما أظنّ، أن يجعلك تشعر به من خلال بعض كلمات في غاية البساطة.

إحياء الذكريات

إفترض أنّك نسيت شيئًا ما وتمنّيت على الآخرين أن يذكّروك به فيقولون لك: «هل هذا هو المطلوب أم ذاك؟» ويأملون الوقوع على الحقيقة أو على مقربة منها. وأنت لا ترى ما تتوق إلى استذكاره، إنّما ترى أنّ ما يقدّمون إليك ليس ما تبتغيه. فهل يمكن أن يقال في تلك الحالة أنّ النسيان تامّ هو؟ إنّ التمييز الذي يجعلك ترفض ما يقترحون عليك، وهو خطأ، ألا يُعتبر بمثابة عنصر من الذكريات؟

أوغسطينس: أجل على ما يبدو لي.

العقل: على هذا النحو، يمكن للإنسان ألّا يصل إلى الحقيقة دون أن يقع في خطأ ويعرف بشكل إيجابيّ ما يسعى

(١٣) إنّ العودة إلى الملاحظة الإضافيّة ٩ مفيدة.

إليه. ولكن إذا جاءك مَن يقول لك إنّك ضحكت، بعد أيّام من ولادتك، فلا تجرؤ أن تتسجّل في خطأ وقد تصدّق الشاهد إن كان أهلًا بالثقة، دون أن تتذكّر شيئًا عمّا يقوله، لأنّ تلك المدّة مدفونة في باطن النسيان. أليس هذا هو رأيك؟

أوغسطينس: تمامًا.

العقل: إنّ هذا النوع من النسيان مختلف تمامًا عن الأوّل، مع أنّه يتّخذ موقفًا وسطًا لأنّه نوع آخر من النسيان أشدّ قربًا من الاستذكار ومن التعرّف إلى الصواب. وإليك هذا المثل عنه: نرى شيئًا ما، ونتذكّر أنّنا سبق ورأيناه ونُثبت أنّنا نعرفه، ولكن، أين؟ ومتى؟ وكيف؟ ولدى مَن مِنَ الناس تعرّفنا إليه، ونهتمّ بذلك جدّيًّا لنستذكره. أكان متعلّقًا بشخص، نحاول أن نعرف أين عرفناه، حتّى إذا ما تذكّرناه من خلال المكان يعود إلى ذاكرتنا مثل نورٍ يظهر دون جهد من قبلنا. أهي انطباعات غريبة عنك غامضة؟

أوغسطينس: لا شيء أبسط وأقرب إلى الواقع.

٣٥ العقل هكذا تُنشَّأُ العقول تنشئة حسنة بواسطة الدروس الحرّة. إنّ المعارف المدفونة ولا شكّ في داخلها، تكتشفها العقول بواسطة الدرس وقد أقول: إنّها تنبشها؛ ولا تكتفي بذلك ولن تتوقّف في سعيها قبل أن ترى الحقيقة في كمالها ورحابتها التي ترسل من خلال بهائها، بعض أشعّتها على تلك العلوم التي تبعث بما يشبه الألوان والصور الكاذبة، وتوزّعها على مرآة العقل. فينخدع

بسببها أحيانًا الباحثون الذين يتصوّرون أنّهم وجدوا فيها كلّ ما يعرفون، وكلّ ما يسعون إلى معرفته. إنّها لأوهام يجب تجنّبها بحذر كبير، وينكشف بطلانها لأنّها تتغيّر مع مرآة العقل، بينما يبقى شكل الحقيقة واحدًا لا يتغيّر. وعلى هذا النحو فإنّ المخيّلة تتصوّر مربّعًا بهذا الحجم أو ذاك، وتضعه نوعًا ما أمام الأعين؛ أمّا الفكر الباطني الذي يريد أن يرى الحقّ، فيضطرّ إلى التوجّه، إن كان ذلك ممكنًا، نحو المبدأ الذي يحكم بموجبه أنّ تلك الأشكال بمجملها هي مربّعات.

أوغسطينس: أجل، ولكن إن اعترضوا قائلين إنّ العقل لا يقضي في ما ذكرت إلّا استنادًا إلى ما تراه الأعين؟

العقل: وكيف للفكر، إن كان مثقّفًا، أن يحكم أنّ كرة حقيقيّة، أيًّا يكن حجمها، لا يمكن أن يطالها مسطّح حقيقيّ إلّا من نقطة واحدة؟ هل كان للعين أن رأت وهل لها أن ترى شيئًا ما مماثلًا ما دامت المخيّلة لا يصحّ لها أن تتصوّره؟ ألا نبرهن عن ذاك العجز حين نصف بواسطة المخيّلة دائرة صغيرة جدًّا، ونرسم خطوطًا إلى وسط الدائرة؟ نرسم خطّين متلاصقين قد لا نجد بينهما نقطة بحجم رأس الإبرة، فنعجز حتّى في المخيّلة أن نتصوّر خطوطًا أخرى متوسّطة تصل إلى وسط الدائرة دون أن تختلط؛ ومع ذلك يعلن العقل أنّه من الممكن رسم الخطوط إلى ما لا نهاية له، وفي ذلك المكان وعلى ما فيه من ضيق، لا يصدّق ولن تلتقي تلك الخطوط إلّا في وسط الدائرة، حيث من الممكن أيضًا رسم دائرة بين

كلّ واحد منها. تعجز المخيّلة عن أن تتصوّر ما يشبه ذلك؛ وعجزها ذاك ظاهر أكثر ممّا في الأعين من عجز، لأنّها هي التي تفرضه على العقل؛ فمن الواضح إذًا أنّها تختلف كثيرًا عن الحقيقة فتختفي الواحدة لدى ظهور الأخرى.

٣٦ البرنامج الواجب ملؤه

سوف نعنى بدقّة ونتوسّع أكثر بدراسة هذه الأفكار، لدى مباشرتنا النقاش المختصّ بالعقل؛ وهذا ما نبغي القيام به حين نوضح ونبيّن، بقدر ما تسمح لنا به قوانا، الأسئلة التي تهمّنا والتي تتعلّق بحياة النفس، لأنّك تخاف كثيرًا، على ما أظنّ، من أنّ موت الإنسان، دون أن يميت النفس، يقودها إلى أن تنسى كلّ شيء، حتّى الحقيقة التي قد توصّلت إلى اكتشافها.

أوغسطينس: لا يستطيع الإنسان أن يقول بما فيه الكفاية كم عليه أن يخشى ذلك المصاب. وفي الواقع كيف تكون الحياة الأبديّة، وأيّ هو الموت الذي لا يحقّ لنا أن نفضّله عليها إن كان على النفس أن تحيا كما نراها تحيا في المولود حديثًا حتّى لا نتكلّم عن الحياة السابقة للولادة والتي لا أظنّ أنّها عدم.

العقل: تشجّع فالله يأتي لمساعدتنا، وها قد بتنا نشعر بذلك إن دعوناه؛ ألا يعدنا، لدى خروجنا من هذه الحياة (ولا يمكن أن يغشّنا) بحياةٍ سعيدة مقرونة بالحقيقة الكاملة؟

أوغسطينس: آمل أن يتحقّق رجاؤنا!

فهرس المحتويات

الصفّ والإخراج : شركة الطبع والنشر اللبنانيَّة
(خليل الديك وأولاده)

الطباعة : مطبعة ليزار

١٢٦٢-٥، ١-١٥/١٢/٢٠٠٥